محمد المخزنجي



الطبعة الأولى
١٩٨٨
حقوق الطبع محفوظة



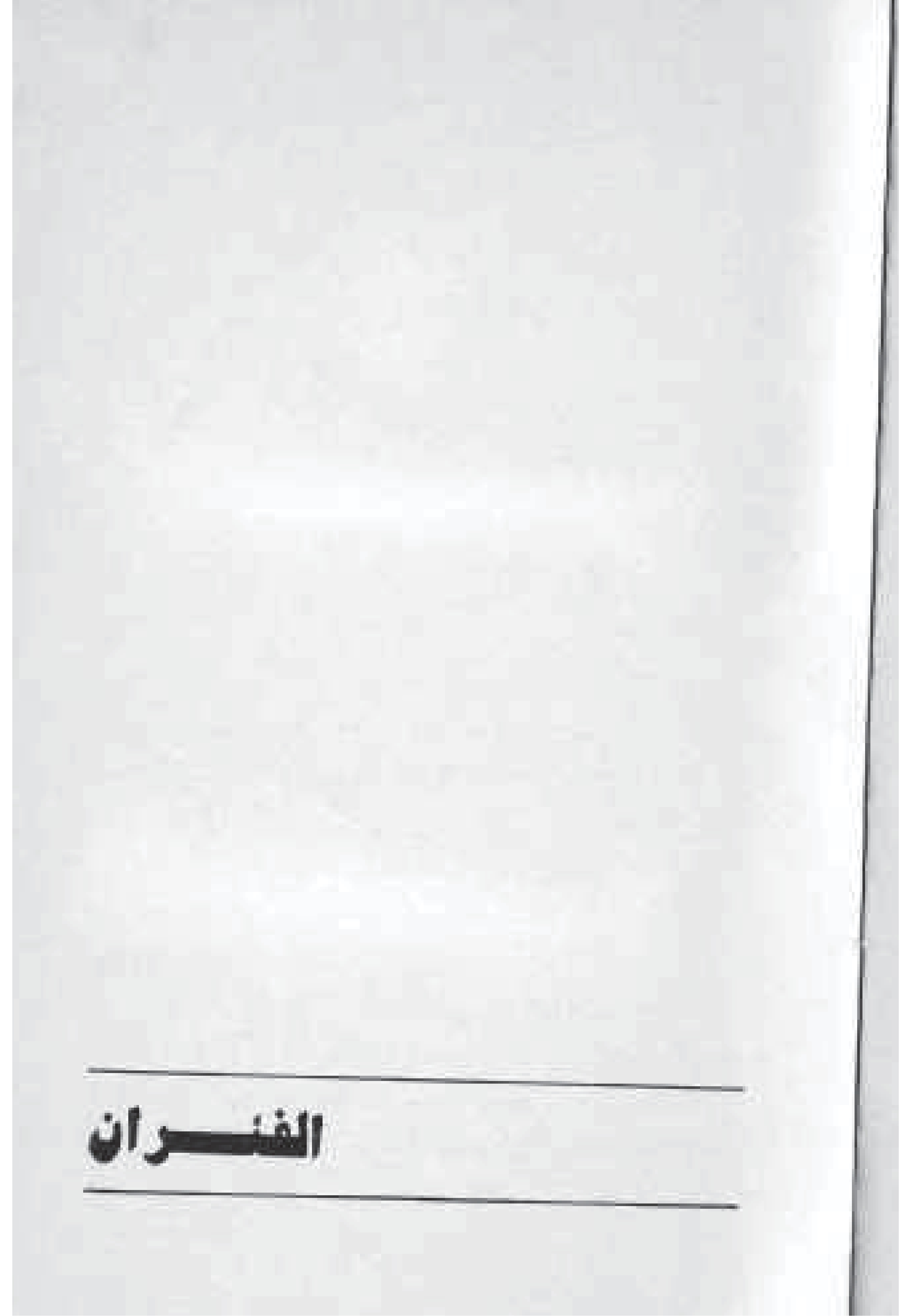
القاهرة - باريس

مدينة نصر - المنطقة السادسة

الغلاف
الرسوم
الإخراج
للفنان : محمود الهندى

محمد المخزنجي

الموت يضحك



الفئران

أخذ الرجل العجوز يدفع العربة الصغيرة أمامه ، والمرأة المتهالكة تلحق به ، فى يدها ورقة يخفق فيها الهواء .
كانا قادمين من جهة مقابر النساء ، فى السكة بين الأشجار حيث كانت ظلال الغروب الممتدة تكاد أن تكسو القناة المشجر المترامى كله ، والسكة ، تتخللها بعض بقع الشمس الغاربة
المتسللة يوهن من بين الجذوع والأغصان . فكانت الكتلة البيضاء فوق العربة تضىء وتعتم ، وتضىء وتعتم ، تبعا لوقوع هذه الكتلة المتحركة فى ساحة الظل أو بقع الضوء .

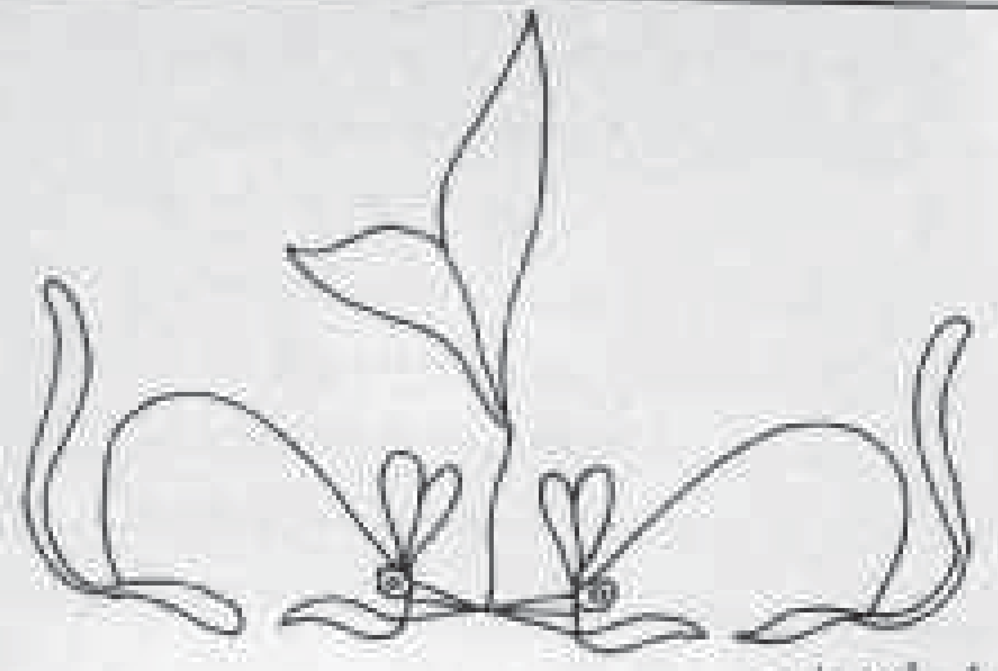
لم يكن يُسمع في هذه السكينة المترامية غير أصوات نسائم الغروب وهى تتخلل الأغصان ، وصوت العصافير المختبئة في الشجر ، وصرير عجلتي العربة الصغيرة ، وحشرجة أنفاس المرأة المُتعبة والرجل العجوز ، وصوتاهما :

- مدى ياوليه يا كركوبة
- اسم الله عليك يا راجل يا عجوز
- والله نفسى انقطع النهارده . تالت مرة أروح وآجى .
- بيقولوا الحر هو السبب .
- مكتوب كدا في الورق ؟

وعصفت هبة هواء ، فارتجفت الورقة أمام وجه المرأة وهى تحاول القراءة ، وارتفع الهسيس فيما كانت الأغصان تتمايل بشدة وترتعش الأوراق . وتساقطت من شجر التوت -وهما يمران تحته- بعض الثمار البيضاء ، والحمراء القرمزية ، ففرشت الملاءة التى تغطى سطح العربة .

- استنى لما نشيله يا راجل .
- التوت الأبيض حلو . كل منه .
- والله مالى نفس .

توقف الرجل عن دفع العربة ، فاستقرت في وضع أفقى مرتكزة على عجلتيها ذاتى الاطارين السوداوين في الخلف والقدمين الحديديتين في الأمام . وراحت المرأة لاهثة تتقدم وترفع حبات التوت عن الملاءة ، ثم ترمى بها بين جذوع الأشجار على جانبى السكة .



واستأنفا المسير .

فيما كانا يمران تحت شجر « البانسيانا » وقد أزهر فكانه مظلات ببهجة الحُمرة وسط دُكنة أشجار الكافور والجزوارين التى تصنع سياجا أمام نوافذ عنابر الرجال الواردين حديثا ، كانت وجوه الرجال والأيادى المضطربة تظهر من وراء القضبان التى تصفح النوافذ ، وتتعالى الأصوات فى جلبة وتشوش :

ـ هات شاى .

ـ شاى يا عم . شاى .

ـ سجاير وشاى . وشاى ياعم .

كانت زهور البانسيانا الشهية الكبيرة ، الحمراء بتوهج ، لا تكف عن السقوط طوال الوقت ، فتفرش هذا الجزء من السكة باللون الأحمر ، وتقع فوق العربة فتبدو الملاءة البيضاء وكأنها نقشت فجأة ببهجة الزهور الحمراء .

ثم اختفت الجلبه عندما اجتاز الرجل والمرأة تلك المسافة تحت أشجار « البانسيان » ، وعاد صوتاهما إلى الأتضاح :

ـ والله ياستى أنا نفسى فى كباية شاى من الصبح
ـ وأنا نفسى مسدودة من ساعتها .
ـ دا يعنى صعبانه عليكى قوى .
ـ عشرين سنه معاشراها .

توقف الرجل عن دفع العربة ، وتوقفت المرأة وراءه ، إذ قابلهما سرب من النساء القدامى حاملات ضُرر القش ـ من ورق الشجر المتساقط والعشب الجاف ـ فوق رؤوسهن .

كانت الضُرر كبيرة صنعت من البطاطين القديمة ، يحملنها إلى « الفرن » ، وتقودهن واحدة من النزيلات القدامى المتحسنات قليلاً . تفيض الضُرر فوق رؤوسهن فتُخفى وجوههن والعيون ، وهن يتحركن مهرولات ، يئن يحملهن ، ولا يبصرن الا مواطىء الأقدام .

اقتربن من العربة فأحدثن جلبة صغيرة من الهمهمات ، ويبدون كدجاجات فزعات اضطربن اضطرابا خفيفا . لكنهن أفسحن الطريق عندما دفعتهن قائدتهن ، الدائمة التلفت ، بضربات عصا صغيرة خفيفة نحو جذوع الاشجار .

ومرت العربة فيما رحن يستأنفن المسير . مهرولات فى صمت وعنت ، تقودهن الملتفتة أبدا . وعاد الرجل والمرأة الى حديثهما وهما يتقدمان . .

ـ عشرين سنه ؟ ياه . لازم أهلها ما كانوش عايزينها .
ـ سمعت ان أهلها هم السبب .
ـ لازم ورث . أرض والّلا فلوس .

ـ باينه كان حب واللا هو جواز .

ـ ضحك عليها وسابها ؟ واللا اتجوز عليها ؟

كان الرجال القدامى ، العالمون ، الذين سُمح لهم بالخروج إلى الفناء ، يظهرون هنا وهناك تحت الأشجار ، هائمين ، يبدون بخطوات متحدثين إلى أطيافهم الغامضة .

كانوا يهيمون ببطء ، أو بهرولة ، في الجلاليب القصيرة التي تُظهر أرساغهم النحيلة وأقدامهم العارية . أذرعهم لا تكاد تهتز في جنوبهم بينما رقابهم المتصلبة تميل إلى الأمام والرؤوس مطأطئة ، جفت أجسامهم ، وشحبت ساكنة الوجوه .

كانت تلفت انتباههم الشتيت كتلة البياض المارة في السكة بين الأشجار ، فتستدير وجوههم المتوجسة ، ببطء .. يسكنون للحظة ناظرين بعيونهم الخائفة ، ثم ينصرفون إلى عوالمهم التي لا تبين لأحد سواهم . وكانت المرأة تجهد نفسها بالتذكر . .

ـ لا . باين أهلها ما والفقوش واللا هو أهله .

ـ لازم كان فقير .

ـ يظهر كده : والا هو كان من مِلّة غير مِلّتها .

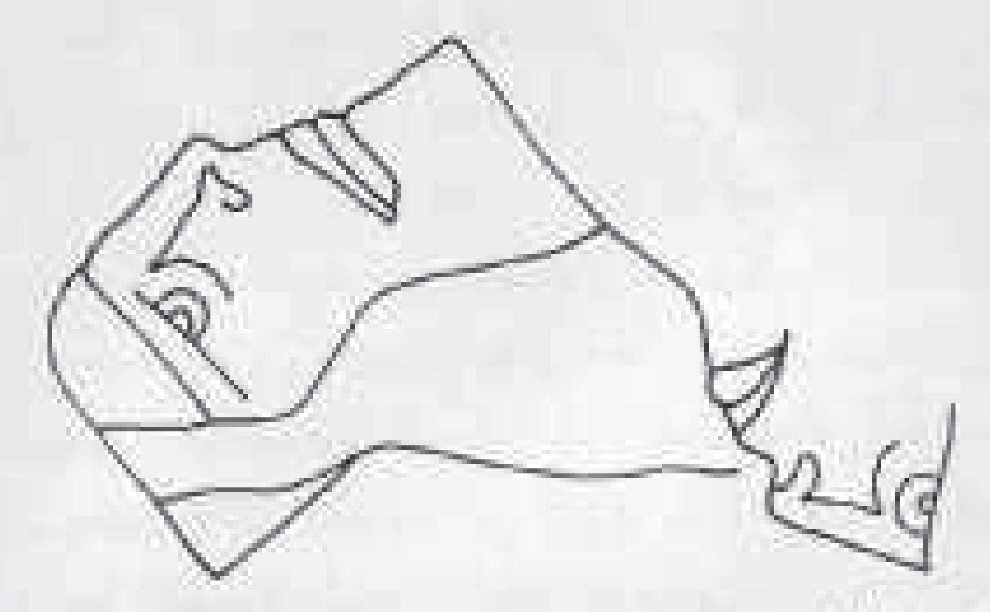
ـ هي ايه ؟

ـ وأنا ايش عرفني ؟

ـ عشرين سنه معاها يا وليه ومش عارفه ؟

ـ واحنا مالنا آهو كلهم بييجوا لنا غلابه زي بعضهم . ربنا هو اللي يعلم بهم

ـ قوليلي اسمها ايه وأنا أعرف لك .



- اسمها ليلى .

- فيها ليلى كده وفيها كده . قولى اسم ابوها وجدها وانا أعرف لك .

- وأنا ايش عرفنى . احنا بنناديهم باسمهم وخلاص .

- اقرى فى الورقة تلاقيه مكتوب .

وقرأت المرأة وهما يمضيان ، فيما كان يتمهل الرجل .

- ليلى . اسمها .. ليلى ابراهيم يوسف .

- بوووه . شوفى دراعها .

وأوقف الرجل العربة التى كانت ، أصلا ، نقالة من نقالات الاسعاف رُكّب لها عجلتين .

واتجهت المرأة الى جانب العربة الأيمن فيما كانت الشمس وهى تميل قبيل الغروب تفرد الظلال فتغمر السكة بالقتامة .

مدت المرأة يدها وقد سرت ارتعاشة خفيفة فى وجهها العجوز ، وأخرجت ذراعا من تحت الملاءة البيضاء ، ذراعاً

شاحبة ونحيفة . تأملتها المرأة بتعاسة وحزن ، وعادت تدفعها تحت الغطاء ، فيما كان الرجل يهز رأسه ويتمتم :

ـ جايز .. جايز يكون فى الشمال .

تحرك الرجل نحو يسار العربة ، وأخرج الذراع اليسرى من تحت الملاءة ، ولم يجد آية علامة ، فأعاد الذراع إلى مكانها ، واستأنفا المسير ، بصعوبة ، وسط ركام من ورق الشجر المتساقط على مدى سنين كثيرة مضت .

كانا قد بلغا نهاية السكة حيث اختفت الأصوات ، وانقطع ظهور الأشجار ، بينما كانت الظلال تأتى من بعيد وتغمر المكان حتى السور الذى كانت تقع فى زاوية منه الحجرة المبنية بالأحجار ، ذات النوافذ العالية الصغيرة ، والباب القديم الضخم .

توقفا مجهدين أمام الباب ، وأخذا يتنفسان بعمق ، وبرغبة فى الراحة . وفجأة نطقت المرأة مذعورة وهى تسأل الرجل :

ـ سامع ؟ فيه صوت جوه .

وضع الرجل يمناه حول أذنه ومال على الباب يتسمع ، ثم أنزل يده واستوى متنهداً يقول :

ـ آه .. دى الفيران .. الفيران .

ـ فيران ؟

سألته وهى تنظر إلى الكيان المُوارى بالملاءة البيضاء ، لا تكاد تنم عنه بينه لفرط ما هو ضئيل وخاسف فى الحمالة القديمة . ثم استطردت تسأل بحسرة وألم :

- وصاحبينهم ؟

- بيوره . عذبنا فيهم .. سم ومصايد ولا فيه فايده .

مال الرجل على الباب يعالجه بمفتاح كبير ، فانفتح الباب بصرير صدىء ، واندفع جسم رمادى - ككرة صغيرة - خارجا ، ثم اختفى فى الحشائش النابتة بكثافة حول الحجرة المهجورة .

صرخت المرأة ، خائفة ، وراح الرجل يطمئنها :

- أيه ؟ دا فار . فار صغير

كانت المرأة هى التى تدفع العربة هذه المرة فيما كان الرجل يوجهها من داخل الحجرة وهو يتبين المكان .

كانت الحجرة المعتمة راكدة الهواء ، تفوح من أرجائها رائحة عطنة .

كان هناك دولاب صدىء فى الركن وضعت المرأة فى أحد أدراجه شهادة الوفاة ، بينما كانت المناضد الرخامية تقوم وسط الحجرة ولصق الجدران حيث تنحيت الجثتان اللتان لم يأت لاستلامهما أحد منذ الصباح .

اتجه الرجل نحو طرف العربة بينما كانت المرأة تقف عند الطرف المقابل .

انحنت المرأة تكشف الملاءة عن الرأس لترفع من الكتفين فظهر الوجه المستطيل الشاحب واسدل الشعر ، ناعما ومرنا برغم البياض الضارب فيه .

- خلقتها جميلة . وشعرها زى الحورية .

- كانت تنسى ما تنسى شعرها . ولما كان يزيد عليها الدور .

تعمل فيونكتين زى الصغيرين وتطلع عايزه تخرج عالباب العمومى . تقول انه جاى لها . وانه بيحب شعرها بفيونكتين .

- وكان بيجيلها صحيح ؟

- دا ميت من قبل ما تدخل هنا .

- موتة ربنا ؟

- بيقولو الظاهر إنه اتقتل .

- أهلها قتلوه ؟

- تقريبا كدا واللا هو أهله .

- ارفعى كويس من تحت الباط .

كان الرجل يرفع من عند القدمين ، والمرأة من تحت الابطين ، نحو المنضدة الرخامية فى وسط الحجرة ، والملاءة البيضاء تنحسر - منزلقة - عن الجسد الشاحب .

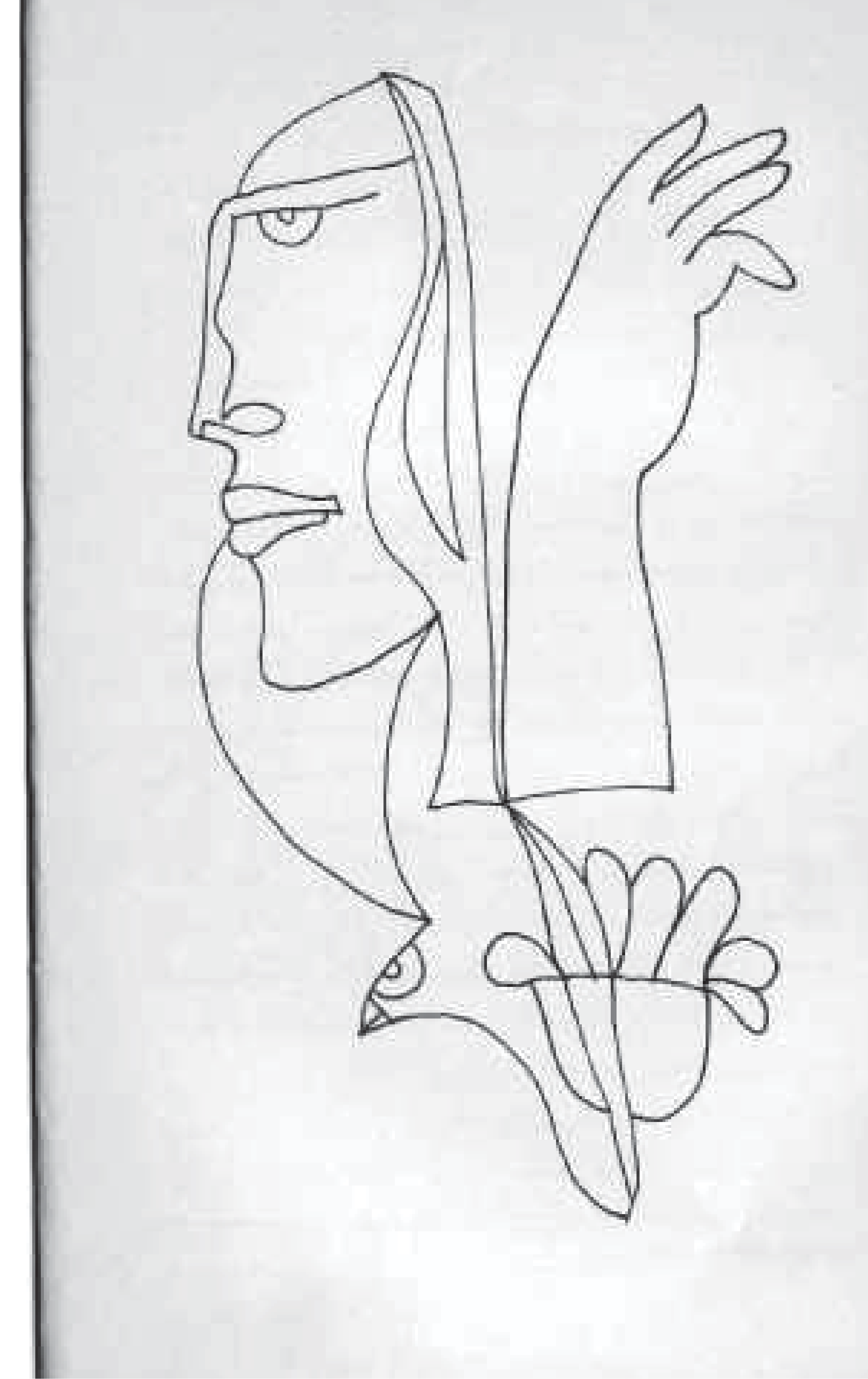
قالت المرأة لاهثة وهى ترفع :

- نبقى نغطيها قبل ما نخرج لاجل سانهم ما تطولهاش

ورد الرجل مُقطّع الأنفاس :

- ياما غطينا وما بينفعش .

كانا عجوزين ، ضعيفين ، ما كادا يسجيان الجسد على المنضدة الرخامية حتى وقفا يلهثان تعبا ، تتردد أنفاسهما بحفيف وحشرجة واهنة تطغى عليها أصوات الفئران التى كانت تتحرك ، مختفية فى الفجوات ، والشقوق ، وظلمة الأركان .



أمام بوابات القمح

« لازم .. لازم .. قتل زمزم لازم »

هكذا كنا حانقين ، والمسافة بين قول الصغار والفعل يمكن أن تترامى بحرا بلا آخر أو تدنو عرض قمحه . والشمس تصعد .. تفيض وتملأ الدنيا فتنبع من كل مكان ، من جوف البيوت الرمادية ، من لحواش السلالم الرطبة المعتمة ، من عند أركان الحوارى الظليلة ، وتتلاقى إذ نحتشد فى شارع « الكامب » المفضى إلى شونة الغلال ..

يأخذنا الشارع ، يأخذنا ونحن ندرج على أرضه الترابية مسرعين .. كل يحمل قلة ماء ممتلئة وطبقا فارغا وكيسا خاليا من قمائل ، وأملا فى العودة بحصاد وفير من قمح تم حصاده منذ حين .

كانت العربات تمر بنا مثقلة بأحمالها من زكائب القمح ، تستنفر التراب حولنا والعدو فى أقدامنا ، وهى تسبقنا الى البوابات ، حيث نسعى . . نرمق عيوننا امتلاء الزكائب بشوق ، وتخايلنا الحبات المنمنمة الاكتناز ذات الشق الحنون الغور فى تجانس هذه السمرة الدافئة . .

- لو الواحد ياخد زكيبة بحالها . . يبطل يبجى هنا تانى
- دا الزكيبة الواحدة فيها قمح يكفى سنه . . أكتر من سنه
- كام يوم ولا مليت نص طبق حتى
- زمزم هى السبب
- آه زمزم . . هى السبب

كنا نتجمع هناك حيث يصب شارع الكامب ، أمام البوابات الهائلة التى تفتح على ساحة الشونة حيث تتوقف العربات لتُنزل أحمالها . نصنع قوسا مشوقا الى القمح ، ونحن نحتمل قلل الماء للسقيا . .

ما يكاد واحد من الحمالين أو رجال الملاحظة يعلن عن عطشه حتى يتفكك فى لحظة قوسنا ونحن نتجرى ونتزاحم ، نتدافع مصطخبين وكل منا يُعلى قلته ويعلن عنها بالصياح :

- خد منى أنا - أنا - لا أنا - أنا يا عم - والنبى أنا - ربنا يخليك أنا - أنا .

ويهنأ صاحب القلة التى تمتد إليها يد المعطشان ، إذ بعدها يُروى المعطش يمتلىء طبق صاحب القلة بالقمح مما تسلل من خروم

الركائب . نحسد الفائز فى كل مرة ونغبطه إلى حين ، لكننا لا نلبث حتى ننسى ونحن نتزاحم ، نتدافع ، ونصطخب متنافسين على الفوز بطبق القمح من جديد .

لقد دُفعنا دفعاً من قبل أمهاتنا لنفعل هذا الشىء فى البداية ، ثم أصبح هذا الأمر لعبة يومية وعملاً فى آن ، وكان التنافس يتأجج ، وكل منا يتفنن ليفرد قلته بميزة وزواق . .

كانت هناك : قلة الولد الأبيض « البريش » - من حارة جنب الجامع ، حمراء بأذنين وقد ألبسها بُرنسا غطاؤها منه فيه . . كانت قلة نظيفة ومضحكة كطفل أحمر بقبعة بيضاء . وكانت هناك قلة الولد ذى القُصة « الكوكو » - من بيت المأذون ، وقد غطاها بشاش أبيض نظيف ورائحة ماء الورد تتضوع منها . وكانت هناك قلة بنت النجار وبها عود النعناع .

كان التنافس متأججا حتى أن عشرات القلل التى كنا نعليها - لحظة يطلب أحدهم الماء - لم يكن بينها واحدة تشبه غيرها . ولم تكن هناك قلة لا يصيبها الدور ، اذ تمتلىء الأطباق بالقمح واحداً من وراء واحد ، والقمح نفرغه من الأطباق فى الأكياس القماش التى نحمل ، وما تكاد الشمس تتوسط السماء ملتهبة والظل تدوسه الأقدام حتى نرغب فى العودة قانعين بما حصدنا - وهو كثير ، وتكون القلل خفيفة فرغ ماؤها بينما ثقلت على أكتافنا الأكياس . كان الأمر هكذا ، ثم اكتشفنا ببطء أننا نعود بالقلل ثقيلة بينما تخف فوق أكتافنا الأكياس .

ثم لم تعد أطباقنا تستقبل حبة قمح واحدة ، ونحن فى هذا اليوم كنا خائفين . .

- زمزم هى السبب
- يشربوا من قلتها لوحدها
- تقولشى فيها مية سلسبيل

أدركنا أن أحدهم ما يكاد يُعلن عن عطشه ونحن نتدافع حتى تظهر ، تفاجئنا دائما بظهورها ، وهى التى كانت - منذ قريب - واحدة منا ، صغيرة مثلنا ، ومثلنا تتدافع وتعل قُلّتها وتعلن عنها بالصياح .
أصبحت تفاجئنا بظهورها من وراء . . تتقدم بغير سرعة ولا تتكبد حتى أن ترفع قلتها مثلنا ، فى مشيتها شئ غامض لا نعرف كنهه ، ثم أنها تأخذ فى إكتساحنا . .
تشق تزاحمنا كسكين حادة تقطع فى جبن هش ، تعبرنا ولداً وراء ولد ، وبنتاً من بعد أخرى ، ولا يشربون إلا من قلتها ثم يكلمونها بكلام ونحن فى دهشة ، وطبقها يمتلىء بالقمح مرة بعد مرة ، ونعود بقللنا ثقيلة فى كل يوم ، وفى كل يوم نعود بالأكياس خفيفة أو فارغة .

- يارب تموت حالا زمزم
- نموتها أحسن
- آه نقتلها

وكنا نتضاغط فى قوسنا المشوق أمام البوابات حيث القمح ،

نجرب حظنا من جديد وقد أبدلنا الحنق بالتمنى . . أعلنوا عن عطشهم ، فجرينا ، تزاحمنا ، تدافعنا إليهم ونحن نُعلى القلل مدلّين عليها بالصياح كما اعتدنا ، بل كنا نزيد :

ـ أنا يا عم ـ قلتى فيها ميّة ورد يا عم ـ قلتى بنعناع ـ قلتى زى الفُل ـ قلتى ليها بُرتس يا عم ـ أنا . . لكنها جاءت من وراء ظهورنا ، فأخفضنا أصواتنا والقلل التى أعليناها ، شقت تزاحمنا بيسر وتقدمت الى الرجل العطشان . . سقته حتى ارتوى ، وامتلأ طبقها بالقمح ، وعاد يمتلىء ، ولم يكف عن الامتلاء !

كانت تكتسنا .

تعود فى الظهيرة ، والشمس الحامية ، والأرض الملتهبة تلسع أقدامنا . . ثقيلة هى القلل ، والغيظ يمتزج فى داخلنا بالحسد والحيرة . . ما الذى تتميز به قلتها عن كل قللنا ، هل لأنها طالت قليلا أصبحت ظاهرة لهم أكثر منا ، وهى لا تتجشم حتى عناء التصايح أو التزاحم مثلنا . . ؟ !

ـ لازم نقتلها .

نقتلها ؟ لا تعود الى مفاجئتنا بالظهور ؟ لا تعود الى اكتساحنا ؟ تعود بقللنا خفيفة كما مضى ، وبالأكياس يثقلها القمح ؟

نقـ . تل . هـا . برقت أمامنا الكلمة ، لُقيا قاسية ودانية فى الأرض الداكنة تحت الشمس المتوهجة . . تلتمع ، وتغرى البصر . . تلتمع ، فتعمى البصيرة . ولم يكن هناك شىء يكف هذا الالتماع المخايل الا ستر الليل .

اذن سنقتل زمزم ، فى الظلمة .
واتفقنا .

بالليل

كنا كثيرين حتى أننا ملأنا بير السلم الرطب الذى نختبىء فيه ، تغرقنا الظلمة ، ونسمع أخفت الأصوات دون أن نرى .. سنقتل زمزم ، كان هذا ما تجمعنا عليه .. نقتلها بأى شىء ؟ أحضر أحدنا عصا غليظة ، وآخر كان يمسك بسكين ، وكنا جميعا سنكبلها بأيدينا ونكتم أنفاسها . كنا خائفين . فقط . أن نكتشف ، فنعرف ، ونضرب ضربا شديداً هذا كل ما فى الامر .. أما أن تموت زمزم فقد كان هذا حسنا ونحن اعتزمناه ونريده ، لكى تكف عن الظهور من ورائنا وأخذ كل القمح . سمعنا صوت أبيها يناديها ، ثم ترامى الينا صوتها ، وكنا نضطرب . ستخرج زمزم اذن . سنثب عليها . لا بل ننتظر حتى تعود . لماذا . بل الآن . كنا نضطرب . انها خارجة لتشترى لأبيها السجائر . كانت تهبط ، ووقع أقدامها على الدرج القليل يأتى خلال الظلمة والجدران ، ستظهر أمامنا وهى متجهة إلى باب البيت . قبض الذى معه العصا على عصاته ، وتحسس صاحب السكين نصلها ، وكنا جميعاً نرتعش كحيوان واحد خائف أو مبترد ، لم ندر . ولما لاح شبحها فى ستارة الظلمة أمامنا ، وثبنا ..

وتعنا عليها جميعا ، وهي تحاول التملص ، تمكنا من فمها فلم تصرخ ، وانتبهنا الى أنفسنا فوقها . . كان ارتعاشنا يذوب فيما يشبه النوم . لقد كانت أيادينا تتحول هكذا إلى خفة عليها ، ورق أو ما يشبه ذلك بها . ثم أزاحتنا . وهي التي أفلتت منا فمها لم تصرخ . . وهي التي لم تعد تكبلها ظلت منطرحة كما طرحناها على الأرض لم تتحرك . كانت تتنفس بعمق . وكنا نبتعد عنها فيما يشبه حركة طيران بطيئة في حلم غريب . كانت الدنيا تدوم كالدوار .

الذي كان على ركبتيه يكممها أخذ يرجع عنها وهو لا يزال على ركبتيه جاثيا . والذي ارتمى بطوله فوق طولها تدحرج مبتعدا عنها كحجر أملس يدفعه الهواء ولا أحد .

وكان صوت السكين وهي تسقط من يد صاحبها مكتوما كالخزي . والعصا الغليظة كأنما تحيت . . وضعت على الأرض بإتئاد حتى كاد الا يصدر عنها صوت . ثم أخذنا نتفرق صامتين . صمتا كالظلمة التي تركناها تسيل . . تسيل . . أمامنا . . وراءنا . . خلفنا . . حولنا . . وفي كل مكان . ونحن بكل ذلك ، كنا مأخوذين .

في الصبح التالي

الشمس كانت هي الشمس . البيوت . الأحراش . أركان الأزقة . كل الأشياء كانت هي هي لم تتغير ، والاحتشاد في شارع

الكاسب يحدث ككل يوم ، لكننا نحن - أصحاب حادثة الليلة الفائتة - وقد شدنا إلى بعضنا البعض خيط غامض به ضعف وبه قوة .. لم نتفرق ، وكنا حريصين ألا نتفرق فى هذا الصباح .. تمشى معاً ، نحمل قللنا ذات القلل ، وأطباقنا ذات الأطباق ، نتجه الى بوابات القمح دون أن نتبادل كلمة . ونحس باغتراب فى هذا الاحتشاد . هل كانت قاماتنا قد ضالت فجأة عنها فى الصبح الفائت ، فكنا نخشى لو نبدو هكذا أغراباً عن بقية العيال .. لقد وقفنا هناك ككل يوم أمام البوابات حول عربات القمح ، ونحن نتوقع أن تظهر زمزم فجأة من ورائنا ..

ولقد كنا فى شوق الى ظهورها .. نعم .. شوق وخجل ، وقد كانت ماكثة لا تزال هناك ..

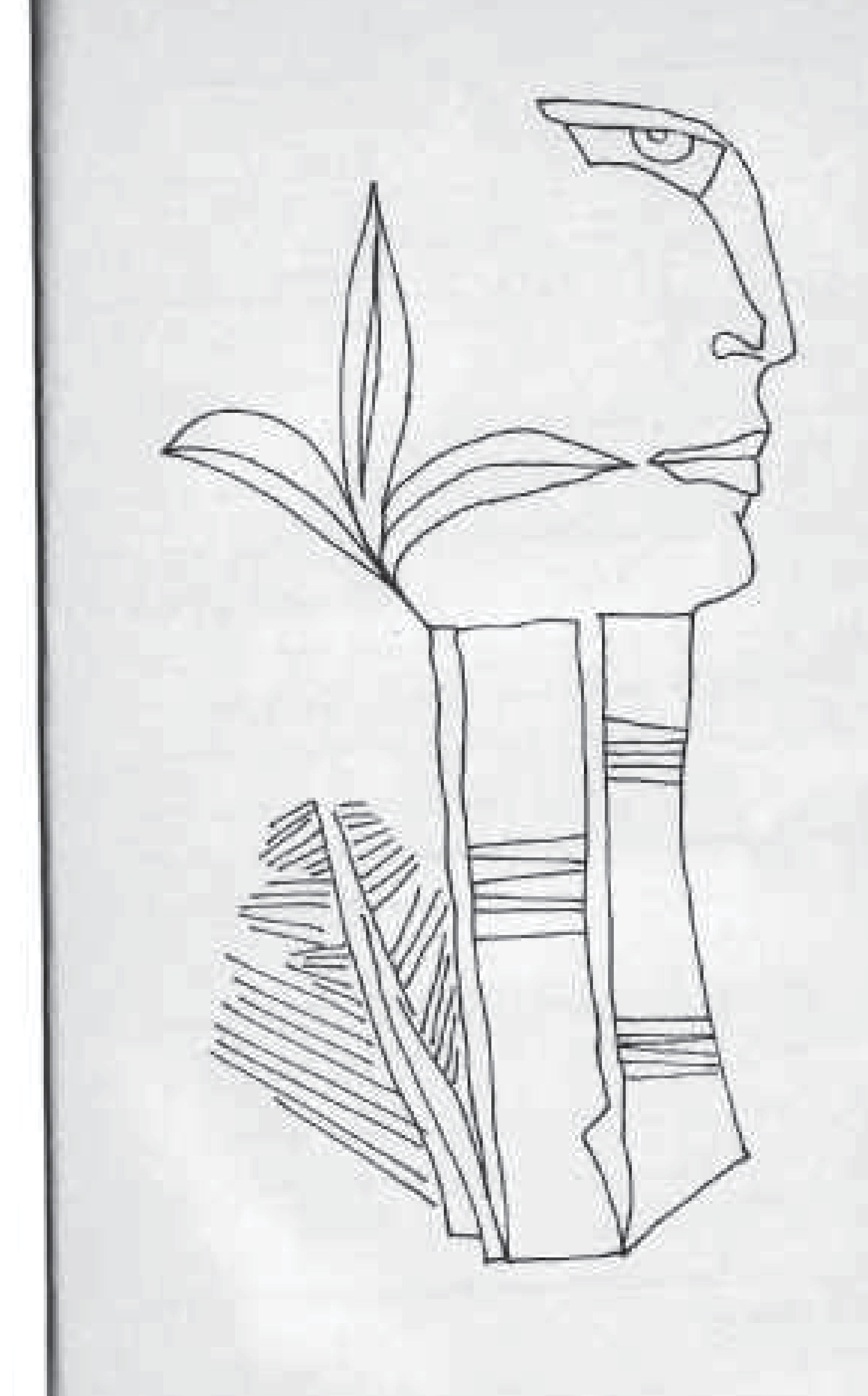
هناك فى تلك الظلمة التى تسيل ، رغم أن الشمس كانت فوقنا تلهب الرؤوس .. كانت لا تزال هناك منطرحة كما طرحناها .. وحيث طرحناها .. فيها ليل وفيها شروق .. فيها لين وفيها شدة .. فيها نزق وفيها اضطبار .. فيها طراوة ، فيها ملاسة ، فيها رحابة ، فيها حنو ، فيها دفء ، وفيها دعوة غامضة إلى عالم غريب لم نعرفه من قبل .

كنا ندرك هكذا أننا كنا فوقها وكأننا عليها .. كائنات صغيرة تافهة تتحرك على كيان هائل لم نعرف له رأساً من قدم .

الذى منا فاجأ يديه ذلك النكور اللذان هذين الشيئين فوق الصدر ، كان لايزال مُشنجاً راحتيه وأصابعه فى وضع المفاجأة تلك بين الإمساك والترك .

والذى لامس فمه ـ دون أن يقصد ـ تلك السخونة المُنْداة . كان يحس بالندى والسخونة على فمه لايزال . والذى تزلّقت أصابعه وارتبكت ـ وقد كان بذلك مذهولاً ـ فى حوض من ورد وشوك . كان مرتجف الأصابع لايزال من غرابة الوخز ونعومة الأوراق فى آن .
وظهرت . . .

ظهرت تفاجئنا ونحن فى شوق إلى المفاجأة . نظرت إلينا نظرة لم نر مثلها من قبل . ثم عبرتنا وراحت تكتسح الأولاد والبنات بقلتها إلى الرجال العطاش .
وعندما كان طبقها يمتلىء بالقمح ، تبينا أننا لم نعد نحسدها ، ولم نعد عليها حانقين . لقد كنا نبصرها ونبصر رؤوس الأولاد والبنات من فوق ، وشعرنا بخجل من هذه القلل التى كنا نحمل ، ولم نتصايح ولم نتزاحم .
فكرنا لو يمكننا أن نملأ طبقها بالقمح ، وكنا نرنو إلى الرجال العطاش . . لو نغدو معهم .



حيث الناس والبيوت

آه يا اخوة . .

آه من عسر الكلام وعصيانه مين يزدحم الطفل بالمعنى وتضن عليه العبارة . .

تضن ، فيروح . . يروح يثريها بيدين ترسمان حيرة فى الهواء ، وثغر يختلج بما يواتى . .

يقول الطفل : « كده » ! كده التى تعنى هكذا ، هكذا التى تشير الى كل ما يزحم الروح ويضغط .

وأنا ـ الآن ـ يا إخوة اذ اتكلم عن الأمر مازال يعصينى الكلام . . وهاكم يدى تتحرك ووجهى يختلج . . .

كان هذا الأنين المروع ، المدبوح . . كانت تطلقه أمي عذابا وهي ممدودة هكذا ، قليلة الجسم نحيفة هكذا . . على السرير الذي كان هكذا تعيسا بأربعة (عواميد) صدئت أساورها الصفراء النحاس ، وتهشمت أو ضاعت عساكر هاماتها الصفراء النحاس كذلك .

كنت سلخة - من بدنها الذي كان ضاويا ومهانا ، وفهمت مرارة قبل أوان المرارة : أن الموت ، هذا الطائر الجارح الأسود الخطاف البشع الذي لا قلب له . . يريد أن يخطف مني أمي التي كنت أحبها بحجم الدنيا التي كنت أعرفها كلها . . كنت أحبها وهي تناديني :

« يا نن عيني » وكنت بالمثل أناديها : « يا نن عيني » .

وكنت أحترق - هكذا - ملوعا بالبكاء وأنا اكتم حيرتي في نفسي :

كيف . . كيف . . كيف لا تخطف مني « نن عيني » ؟ !

ماذا كنت أفعل يا اخوة ، وقد كنت - هكذا - صغيرا ؟ !

كانت فوق السرير تستجدي بأنينها الموجع شيئا بعيدا بعيدا لم اكن أبدا أراه يجيء ، وكن حول سريرها وقد لبسن السواد حلقة كثيفة من نسوة هالكات يبعثن في تراحمهن الأسيان الكامد حولها بنذير قابض ، وقد كنت أرى ذيول جلابيبهن السوداء تظهر تحت دائر السرير المشخ المثقب وتتحرك متهدلة ببطء . . كنت أرى هذا التهدل البطيء لخرق السواد وأنا قابع تحت سريره « نن

ـسى ، مقرفص أبكى بلا صوت حتى لا أكتشف ، فقد كانت ـندهدة الموشاة بالشفقة يومها تهينني وأكرهها . . هكذا! ـرهها ، والتصق ببرودة الحائط . . أفكر عندما أتعب من البكاء . . أفكر لو لم أكف عن اتيان الأفعال الحرام . . لو لم أكف ، فربما الرحمن الذى على عرش السماء السابعة يقعد يسامحنى ، يسامحنى ولا يأخذ « تن عيتى » بذنبى . . تمسح عنها الداء ، فتعود كما كانت . . حلوة هكذا . . تأخذنى معها الى كل مكان ، وتضمنى فأحس بطراوة حضنها الودود ، وتهدهدنى . . والغنوات تهدهد :

« حاده حدتو
من الله طلبتو
طلبتو واعطانى
اعطانى حاده »

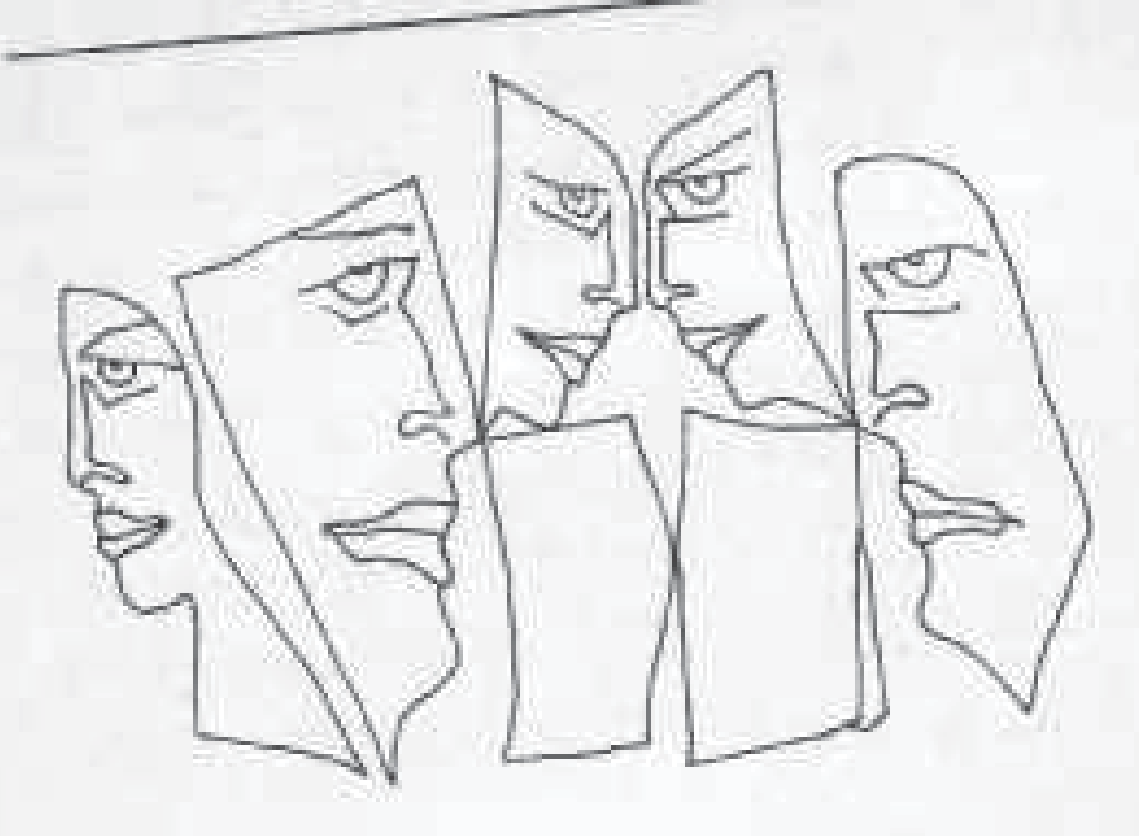
و

« حاده واقف ع الملاحة
ماسك فى ايده التفاحة
والبنات وراه رماحه »

و

« نام يا تن عيتى نام
وأنا أجيب لك جوز حمام »

غنوات ، وغنوات ،



وغنوات أخر . . أى وان كنت قد نسيت كلامها ، فإنى لا أنسى إيقاعها المدمث بالتربيت أبدا .

وفكرت هكذا ، وهكذا قررت وأنا أعاهد الرحمن :

- ان أحب كل الطعام ولا أعاف منه شيئا أو عليه أغضب .

- ألا أصيد العصافير وألا أحبسها .

- ان أحمل اللقم المتربة التى أجدها فى الطريق وأقبلها ثم أضعها للنمل عند سفول الحيطان .

- ألا أجرى وراء القطط الجربة وألا أضربها .

- ألا ألتفت أو أشرد فى وقفة الصلاة يوم الجمعة .

وكنت أمسح دموعى بعد العهد مع الرحمن ، وأخرج متسللا من بين أرجل النسوة الضامرات ، وأعبر تحت تهدل الخرق السوداء ، وكلى رجاء . . .

كانت « تن عيق » تئن لا تزال ، أنينا أصبح قابضا للروح ، وكان رجائى قد خاب رغم أنى وفيت ولم أخن ، وكان بكائى تحت سريرها هذه المرة يحرق بالعذاب اكثر حتى أفلت نشيجى رغم حرصى - الا يخرج منى صوت يشى بى ، وفكرت أن خيبة رجائى كانت لكثرة ما ارتكبت من ذنوب - هكذا - لا أعرف كيف . وطلبت من رب السموات أن يعذبنى - حتى تخلص ذنوبى كلها ، ولا يخيب لى الرجاء فى أن تخلص « تن عيق » من علتها .

أخذت انتظر أن تعمى عين من عيونى ، أو يتخلع ، ولا يعود ، طرف من أطرافى ، وطال انتظارى فقررت أن أعذب نفسى بنفسى حتى يرضى الرحمن - هكذا - عنى . .

عريت زراعى ورحت أعض ، أعض ساعدى . . أعض عضا قاسيا أقسى ما استطعت . . حتى تركت ساعدى دوائر دوائر . . . دوائر مزرقة تحمل أثر قوسى الأسنان المغروزة وتبتل بسيل اللعاب وفيض الدموع . .

كانت « تن عيق » قد كفت عن الأنين لأن غيبوبة أدركتها ولم أكن اسمع منها الا صوت الانفاس المضطربة العميقة الغور ، وران صمت غريب موجع . . تصورت أن فيه - هكذا - يحلق طائر الموت الذى رأيته حدأة كبيرة بعيون حمر ومنقار أسود . . أسود كبير ومتقوس ، ينتهى بطرف حاد كطرف السكين . . كان طائر الموت أسود كسواد جلابيب النسوة اللائى جلسن حول سريرها صامتات خافضات الرؤوس . . . وخفت أن يشرعن

فجأة في الصراخ ، وكنت خائفا من طائر الموت أن يفعل - هكذا - ويكون في الفعل دم اذ كنت أدرك - الآن - أنه طائر مجرم وغلاب . . . وهرعت واجف القلب مطأطئا بعد أن مسحت بيدي وجهي محاولا الا أترك أقراني من عيال الشارع يكتشفون أن عيوني كانت مبتلة ، وهناك . . . هناك . . . حيث لم تكن تقوم البيوت ولا يمشي الناس أخذت أبذل أقصى ما أستطيع . . .

أن ألعب مع « تن عيني » حيث بدا غير ممكن أن تفر هي مني ولم أكن قد رأيت شيئا يميت نفسه الا العصافير التي تصاد وتحبس ، فتحبس أنفاسها ، ولا تأكل حتى تموت .

ورحت مثلها أفعل : أخرج جائعا وأذهب الى أقاصي الغيطان . . . مختبياً أقعد على حافة المصرف النائي . . . أبكي ثم أشرئب بعنقي حابسا النفس . . . أحبس النفس حتى أتوتر فأتلوى وأنا أكتم دفقة الضغط التي تندفع الى وجهي عبر ضيق الصدر . . . أزفر نادما أن لم أحتمل ، وأشهق مقررا أن أعاود الكرة . أعود أحبس النفس وأنادي مكتوما طائر الموت . . . أناديه نداء يكاد يتفجر ويبعثر . . .
أناديه أن يأتي . . . يأتي ينقض ويلتقط بمنقاره روحي التي أحسها تصعد الى الحلق ، وأرجوه أرجوه أرجوه أن يفعل هكذا بغير أن يكون في الفعل دم . . . أناديه أناديه أناديه وأرجوه أرجوه أرجوه أرجوه ولا أستطيـ يـ يـ يـ يـ ي ي ـــ ع ، فأزفر طاردا ما أكتم ، وأشهق ثم أنفجر بكاء مرا . . . وأعاند مكررا المحاولة فأجد نفسي أعد ؟ ! . .

أحمد ـ بغير قصد ـ حاسباً إلى رقم لم أستطعت أن أحبس أنفاسي ! وعندما أزفر لم أشهق أجدنى لا أبكى ! . وأحللت أكرر ، وأزيد العد في كل مرة . ثم وجدتني ناسيا ، وانجه أذ تسوقني قدماي إلى حيث الناس والبيوت . . أذيع بين أقراني لعبة جديدة ، وأطلب من يخالفني وأنا لم أرتب لذلك !

« من يقدر يحبس نفسه أكثر مني ؟ »

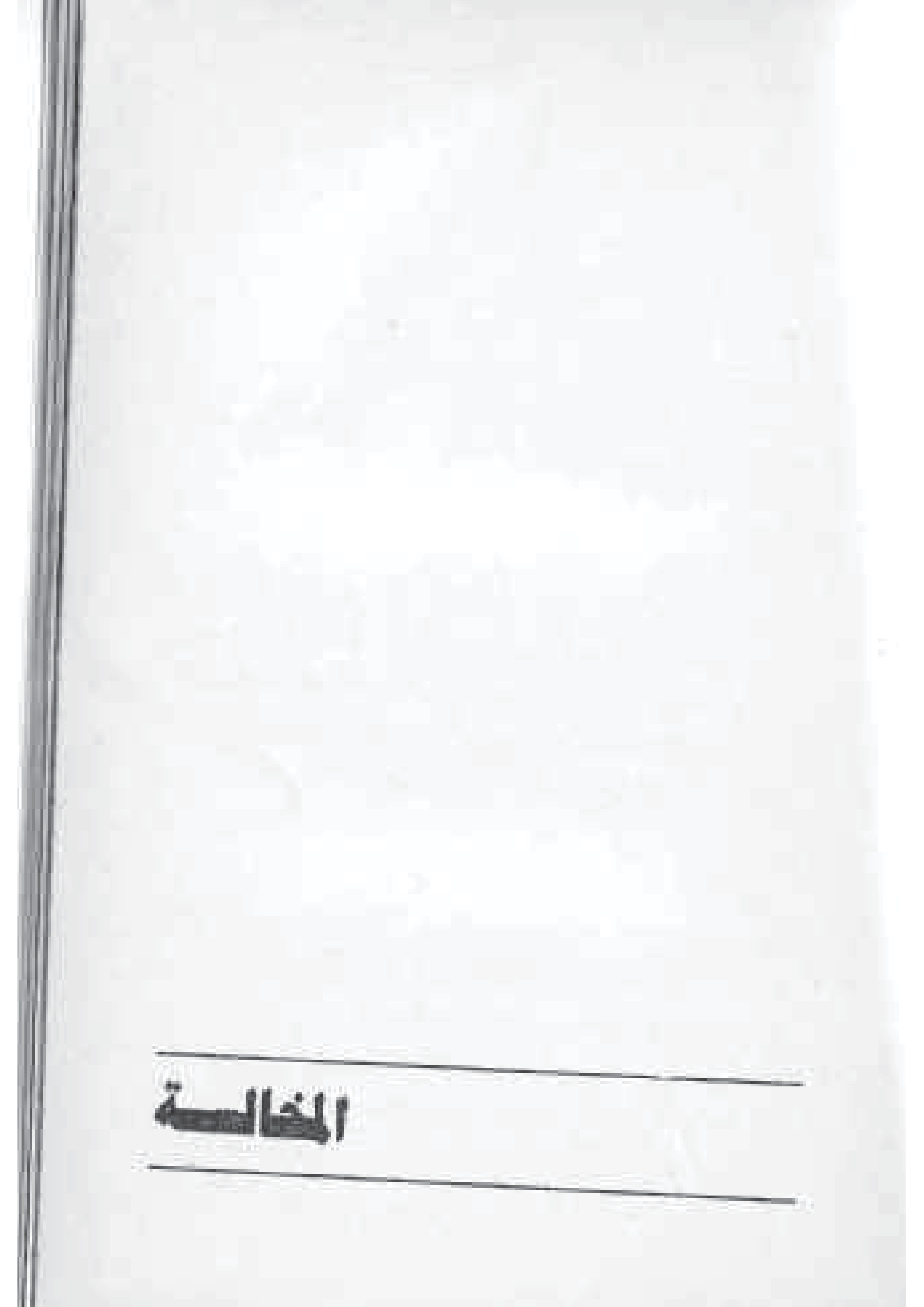
« من يقدر يحبس نفسه أكثر مني ؟ » .

وأصبحت بطل هذه اللعبة ! .

بطل هذه اللعبة أصبحت ، وأصبحت ألومها وأنا ألعبها : مرة بأن أضع يدي على فمي وأنفي ، ومرة بأن يضع أي من عيال الشارع يده على فمي وأنفي حتى يوقنوا كوني لا أكذب ، وحتى يتأكدوا من كوني ـ فعلا ـ لا أكذب طلبت منهم أن يحضروا وعاء ممتلئا بماء . . . أغطس فيه رأسي ، وليعدوا حتى يتأكدوا أنني احبس أنفاسي ـ بالفعل ـ طويلا ، طويلا قبل أن تخرج رأسي من الماء . كان هذا يتطلب وقتا حتى يتحقق . ثم أن تحققه مرة لم يكن كافيا للتأكيد ، وكان التكرار يتطلب وقتا آخر ، ثم أنني كنت أتعلل بضرورة أن أنتظر بين الناس والبيوت حتى يجف شعري من البلل ، فهل كان يصح يا أخوة أن أعود إلى البيت مبللا . . كان هذا لا يصح . كنت أقول لنفسي ذلك . وكان للماء الذي أغطس فيه رأسي لذاذة مدهشة . . أعرف الآن ـ يا أخوة ـ كيف لا يسعفني الكلام في التعبير عنها ، وباللذات

لحظة أخرج بوجهي من الماء وأملأ صدري بنسائم الدنيا كلها .. كلها ـ يا إخوة ـ قبل أن اكرر اللعبة في أماكن أخرى حيث الناس والبيوت . لابد بين الناس والبيوت !

نعم يا اخـوة .



المخالسة

فتحت له ، فذكر اسمى ، وذكر اسمه ، وعرفنى بنفسه : « شرطى سرى من مديرية الأمن » ، فاندهشت مضطربا ، ومكثت مرتبكا للحظات فى حلق الباب دون أن أدعوه للدخول : « تفضل . تفضل » . فأنا رجل مسالم ، لا أذكر أننى دخلت قسما للبوليس مرة ، وأكاد أن أكون مخلصا حتى النخاع لكل حرف فى كلمات الحكم العظيمة من مثل : « دع ما لقيصر لقيصر ، ودع ما لله ، لله » ، و « لا تتدخل فيما لا يعنيك فتسمع - على الأقل - ما لا يرضيك » ; ولولا أننى أخاف افزاع طفل الحبيبين الوديعين وإثارة استغراب الآخرين لعلقت فى كل أرجاء البيت والعيادة ومكتبى فى المستشفى صورا مكررة للقرود الثلاثة القاعدين القرفصاء : يغطى أولهم عينيه ويسد الثانى أذنيه

ويكمم الثالث فمه ، يدعو الى : « لا أرى ، لا أسمع ، ولا اتكلم » ، ايثارا للسلامة . ثم انى انسان لا أعداء له ، بل ولا ـ حتى ـ اصدقاء ، بالمعنى العميق لكلمتى : العداء ، والصداقة . وقولى المأثور الأثير هو : « أحب حبيبك هونا ما عسى أن يكون بغيضك يوما ما ، وابغض بغيضك هونا ما عسى أن يكون حبيبك يوما ما » . لا أغوص أبدا فى أى شيء ، ولا أحب الغوص لأنى اعتقد أن أى غواص مهما احترف معرض يوما ما للغرق . حتى فى عملى ، لا أحب الغوص ، ولا أومن فى جدواه . ولقد اثبت سجل عملى نجاحا باهرا لتطبيق وجهة النظر التى أبداها البروفيسير « جا . واليس » فى مرجعه المختصر المفيد والتى أقدسها ، تقول : « بما أن السبب المنشيء للمرض النفسى ـ بالضبط ، بالضبط ـ غير معروف ، فعليك بالأعراض » ، وفقط .

ومع ذلك ، كنت مرعوبا من هذا التيه المفزع الذى رمانى فيه المخبر الجالس فى صالون بيتى ، يشرب الشاى ، وأنا ألح عليه كى يقول لى لماذا أنا مطلوب للأمن ؟ وهو ، يهز رأسه اشارة عدم المعرفة ، ويرتشف الشاى بصوت مرتفع ، أضحك طفلى ، ولم تضحك له زوجتى التى وقفت شاحبة الى جوارى .. شاحبة ، خائفة ، ومع ذلك لم تفقد حساسية المرأة .. هذا الذكاء الانثوى الذى يلتقط برقيق الانامل أدق الخيوط واهمها فى أعقد نسيج كان ، فبعد أن قدمت اليه « البمبونيره » ليأخذ واحدة من الشيكولاته ـ لاكها فى فمه بسرعة ـ أصرت أن يأخذ المزيد ،

وسحبته : ـ « عندك أولاد » ـ « خمسة » ، فضربت الخمسة فى أربعة وقلت فى ثوان قليلة عشرين قطعة من الشيكولاته الكبيرة بالبندق : « للاولاد » ، فانشرح وتململ ، واطلق من فمه حمامة طمأنينتنا : « لا تقلقى يا هانم ، الدكتور مطلوب لسؤال عن زميل له مقبوض عليه للاشتباه » .

ماذا فعلت يا حسين يامنصورى ؟ ظل السؤال يحاصرنى وأنا أرتدى ملابسى لاخرج ، وأنا أهبط سلم بيتى ، وأنا فى الطريق الى مديرية الأمن . وحسين المنصورى طيف يطالعنى فى كل خطوة ، بوجهه المدهوش الذى يشبه وجه صبى ويوحى بوجه شيخ فى ذات اللحظة ، يسبح حولى بجسمه الصغير وأراه شاردا رغم قلق العينين المغرورقتين دائما . قلت لك يا حسين يا منصورى مالنا نحن وما للقلق عندما رحت تنبش وتحفر فى مواضيع متعبة : مرة عن علاقة الاحباط بالتطرف ، ومرة عن اكتئاب النساء وسعر الرجال ، ومرة عن جنون الاطفال فى غياب الأمهات .

وقلت لك ستروح فى داهية عندما اثرت قضية « ضرورة أن يكون للطب النفسى رأى فى كل المشاكل الاجتماعية وفى الصلاحية النفسية لشخصيات الكبار » . وقلت لك لا تعرض نفسك للحرج والخطر عندما تلبثك العناد أن تذهب بعيدا فى « بحث جوانب موضوع حالات التحول الهستيرى المتكررة وسط المنقبات » اذ كن يحتمين بالعمى ، والخرس ، والغيبوبة ، وفقد الاحساس ، والشلل ـ الهيستيرى جميعا . تظل تناقشهن طويلا

بعد أن يشفين ، وهن يقاومن . تتكلم عن ابن كثير وابن حزم والألباني ومن لا أعرف أسماءهم ، تقرأ عليهن آيات وتقول « لا نص في آية الأحزاب ولا في آية النور على ضرب النقاب » ، وتقول .. هناك أحاديث كثيرة أقرت السفور ولم تطلب من المرأة لا تغطية عين ولا عينين . وأراك بعد أن ينصرفن متوترا تروح وتجيء ، وتردد : انحيار أم انهيار ؟ انصياع أم اقتناع . ثم تسألني وأنا لا شأن لي بذلك : لماذا يخترن الأعسر الأعسر والأعنت الأعنت والأغلظ الأغلظ . تسألني بماذا أفسر تناقض التركيبة النفسية الهشة للهستيريات مع ما يبدين من قوة في التعصب . وعندما حاولت أن أكفك بالطنز عن الإيغال قائلا : سل نفسك ! وجدتك تستسلم بسهولة أدهشتني وأنت تقول : كأنك كالوا تقف على حافة الجرف ترى ما وراءه من بسطة الأرض إلى استدار ، ويبصر حقيقة الهوة إن أطل على أسفل .. فأمسكت أنا .. وظلت تشغلك حالات المنقبات الهستيريات فتغرق في البحث عما تسميه « سيكلوجية التخفي » . وصرت أضيق بأسئلتك الحيرى : ما هي سيكلوجية انسان يراقب العالم خلال ثقبين وهو مختف ؟ ما هي سيكلوجية انسان يظل يرى العالم من وراء منظار وهو يعلم أن أحدا لا يراه ؟ ما هي سيكلوجية من ينظر خلال عين الباب السحرية طوال الوقت وهو عارف أن أحدا لا ينتبه إليه ؟ وعندما عرفت أنك أبلغت تطلب اجازة ، وانقطعت عن المجيء ، وانقطعت عني أخبارك ، منذ شهرين ، ذهبت إلى شقتك الصغيرة ولفت نظري انتزاع العين السحرية في

دُكنة خشب الباب ، فهل كنت هناك طوال الوقت وأنا أضرب الجرس وأطرق دون مجيب ؟ ! أم ماذا ؟ ! وما شأن أنا ؟ !

وما ذنبي يا حسين يا منصوري لتضعني في هذا القلق والخوف يزايلني . أدخل المبنى الرهيب .. ردهات جهمة وعساكر منتشرون أمام الأبواب ، ومخبرون يروحون ويجيئون بسرعة وملامحهم توحي بالتكتم الأصم . ووقفت برهة من خطر غامض ثم أدخلوني أمام رهبة السلطة وبريق النور السور والنجوم المخيف ، لكن جنابه دعاني إلى الجلوس بلطف زائد « تفضل يا دكتور » ، وسألني عما أشرب ، فشكرته « عجباً بالشاه ، وكدت أهب واقفاً لتقبيله .

قال جنابه لي إنهم ضبطوه متخفياً في زي امرأة منقبة يتجول في الشوارع بين الناس ، وقال لي إنهم عندما قبضوا عليه وأزاحوا عن وجهه النقاب كان يخفي وجهه بيديه مضطرباً كطفل خجلان أو كمن يبهره النور بعد ظلمة ، وظل يخفي وجهه ولم يتكلم . وعندما فتشوا في جيب بنطلونه الرجالي الذي ابقاه تحت الجلباب النسائي الضاق وجدوا بطاقته وكرنيه النقابة وبطاقة عضوية جمعية « الطب والنفس » ، وقال لي أنهم عندما تحروا عنه عرفوا أنه وحيد وليس له أقارب أو أصدقاء بالمدينة ، ويعمل معي ، ومن ثم لم يجدوا غيري يعرفه . وقال لي إنهم آسفون لازعاجي وقد اضطروا للاستعانة بي لعله يتكلم ، ونهض وقادني خلال ردهات كان يعبرها فينتفض كل شيء بالتحية العسكرية ثم نزلنا درجاً يفضي الى بدروم معتم ودهاليز مضاءة بمصابيح كابية ،

وصلصلت بوابة حديدية تفتح فرأيت صفا من الغرف الموصدة أبوابها السوداء ، وجاء عساكر يحمل أحدهم كشافا يشرق العتمة ، وفتحوا بابا ودخلوا ودخلت ونادى جنابه بصوت رهيب : « أظن ستتكلم يا حسين يا منصورى » ، وضربوا بضوء الكشاف فى الركن ، ولولا أن أخبرت سلفا بأنى ذاهب إليه لما عرفته ، فقد كان فى الركن قاعدا القرفصاء مخبيا على نفسه ببطانية رمادية يطل من شق بين طرفيها . كان واضحا انهم يطلبون منى محادثته فانحنيت عليه أناديه : « دكتور حسين يا دكتور حسين » ، وكنت أزيح عن وجهه أطراف البطانية فيعيدها بشكل آلى ، « حسين .. حسين » ، لكن وجهه المحايد الشاحب لم يرد النداء ، ثم إنه انسحب داخلا فى مكمنه الرمادى ، وانا أستوى واقفا ، لا أكرر المحاولة .



ما بال هذا الأنين

لم يكن هذا مجرد نباح ، فقد كان شيئا بشعا عندما فزعت من نومى . مرة أخرى يفلت الحلم ويطير . لليوم العاشر منذ خروجى والأحلام تفلت من نومى وتطير . وقلت : لعله كلب غريب دخل وسط كلاب المنطقة فتجمعوا عليه ينبحون .

لكن ، عندما بدأ الخبط يصل الى الباب ، كنت أدخل فى مشاعر تلك اللحظة . . أدخل فى خليط الذهول والحضور الباهر . . الوميض ، واسراع النبض ، والدوار الذى لا يكتمل . وقلت : لقد جاءوا اذن ، وكان هذا هو الوقت : بعد منتصف الليل ، وقبل الفجر .

قلت : لقد دخلوا ، اذ سمعت الباب يفتح . وسمعت أصوات الأقدام الكثيرة فى بئر السلم . وأخذت أصغى وأنا أقول : سأجدهم فوق رأسى ، وسأشعر بالمرارة والاحباط وأنا أنهض . . سأرتعش من البرد ومن الشعور باليأس وافتقاد الأمان ، وسأرتبك وأنا أحاول اخفاء ارتعاشى .

عادت الأصوات تخرج من بئر السلم . كان النباح ، النباح ، النباح ، ثم انى كنت أتبين صوتا يشبه صوت انسان مرتاع تحول الى بكاء . . واستنفد نفسه فصار أنينا ، وكانت أصوات الكلاب من حوله تنطفىء صوتا وراء صوت .

قلت : لماذا هموا بالصعود ثم تراجعوا ؟ لابد أن الكلاب كانت تستعر بالنباح عندما رأت سياراتهم الساكنة المطفأة الانوار تتسلل . وعندما هبطوا من السيارات كان النباح يشتد ، ولابد أنهم ـ حيث توجد معهم دائما بنادق وهراوات . . راحوا يضربون الكلاب التى تجمعت عليهم بكعوب البنادق ورؤوس الهراوات ، ضربا مكتوما لنكف ، فلا أستيقظ ، ولا يستيقظ الناس ، ومن ثم أباغت . لكن ، ما هذا الأنين ؟

أخذت أصغى لليل . لقد انقطع النباح كله أو يكاد . لا صوت الا ذلك الأنين الغريب . ولم تكن هناك حركة . . حركة الاقدام التى كان ينبغى أن أسمعها وهى ترط الدرج ، متابعة متزاحمة ، لأفاجأ بهم فوق رأسى . ومكثت أصغى .

قمت أخيرا ، خرجت من سريرى ورحت أعبر باب الحجرة ، والردهة ، وأفتح باب الشقة ، وأهبط عارى

القدمين . أوقفت نور السلم ، وكان صوت الأنين يتضح شيئا فشيئا كلما هبطت درجة فدرجة . ثم رأيت الكلبين المذبوحين !

نعم : مذبوحين ، لا أستطيع تعبيرا أقل من ذلك . لقد كان هذا الجزء النازف من جسديهما مضرعا حتى البطن وأعلى الأفخاذ ، وكان دمهما يلطخ الارض وعتبة الباب والأجزاء السفلى من الحيطان . كانا يئنان وجسداهما فى ارتجاف متواصل . ثم انهما التفتا معا الى وجودى ، ولم يتحركا ، بل أخذا يتطلعان نحوى فى ضراعة .

لابد أن الألم كان يعصف بجسديهما المتصلين ، وكانا مذهولين حتى اللحظة ، وكنت أستطيع الآن أن أغمض عينى وأتخيل . . عندما التقيا فى الليل ، والتصقا ، وكانت الكلاب تنبح من كل مكان ، فراحا فى عجزهما الذليل يندفعان للاحتماء بمداخل البيوت ، وكان بيتنا أقرب ، ومن شدة الحاحهما على النجاة أخذا يدفعان الباب معا ، فينفتح ويدخلان ، يلحق بهما النباح وتطالهما الأنياب ، ويتم ذبحهما على هذا النحو فترجع عنهما الكلاب الى حين . وقد كنت أبصرها ـ تلك الكلاب ـ وهى ما تزال تترصد لهما خارج الباب فى عتم الليل .

كانا يرتجفان مزيدا ، ويصدران صوتا كالنحيب وهما يسددان الى نظراتهما المتضرعة ، فملت مذهولا أحاول أن أساعدهما وقد استكانا لى . ولما كانت يدى تتلمس هذا الجزء من جسديهما ، اقشعر جلدى ، اذ كان اللحم (المفرى) المدمم يتساقط بمجرد اللمس ، فتراجعت بظهر مقصوم ، يثقلنى صدر مبهظ ،

وتقعدني روح مهدرة ، فأتهاوى مقرفصا على أول درجات السلم .

ما الذي جعلني أتذكر حسرات عمري كلها ، وحتى المقهور ، والأحلام التي تبددت ولم تخلف غير الحسرة ؟ أشعر بوطأة الوحشة في هذا الليل ، وأشمل المذبوحين بنظري ، لبرهة ، ثم أنحني ، وجهي بين ركبتي . أتحرق للبكاء ، لكن البكاء يستعصي ... ثم إنهما راحا يتأوهان ... بصوت إنساني خالص كانا يتأوهان ، تأوها أحسه يتخللني ويتسلل عبر عظامي إلى النخاع ويتصاعد ، فلا أحتمل المزيد .

وأراني في لحظة ذاهلة كأنني أنخطف ... القلق خارجا في هالة من صهد يومض ، وأضيع من عوري وسط لمة الكلاب في ليل الشارع الخالي . لا أشعر باضطراب الأنياب المسعورة حولي ، ولا أحس بعقرها ، لكنني أستشعر لذة غريبة كهذه التي تكمن في عض الخدود المهتاجة حتى في ذروة الذروة . هنا ... كلما طالت قدمي نورا من أنوار الكلاب الرطبة ولطمته ، لطمات ... وكأن قدمي حجر .

هذه المزرعة



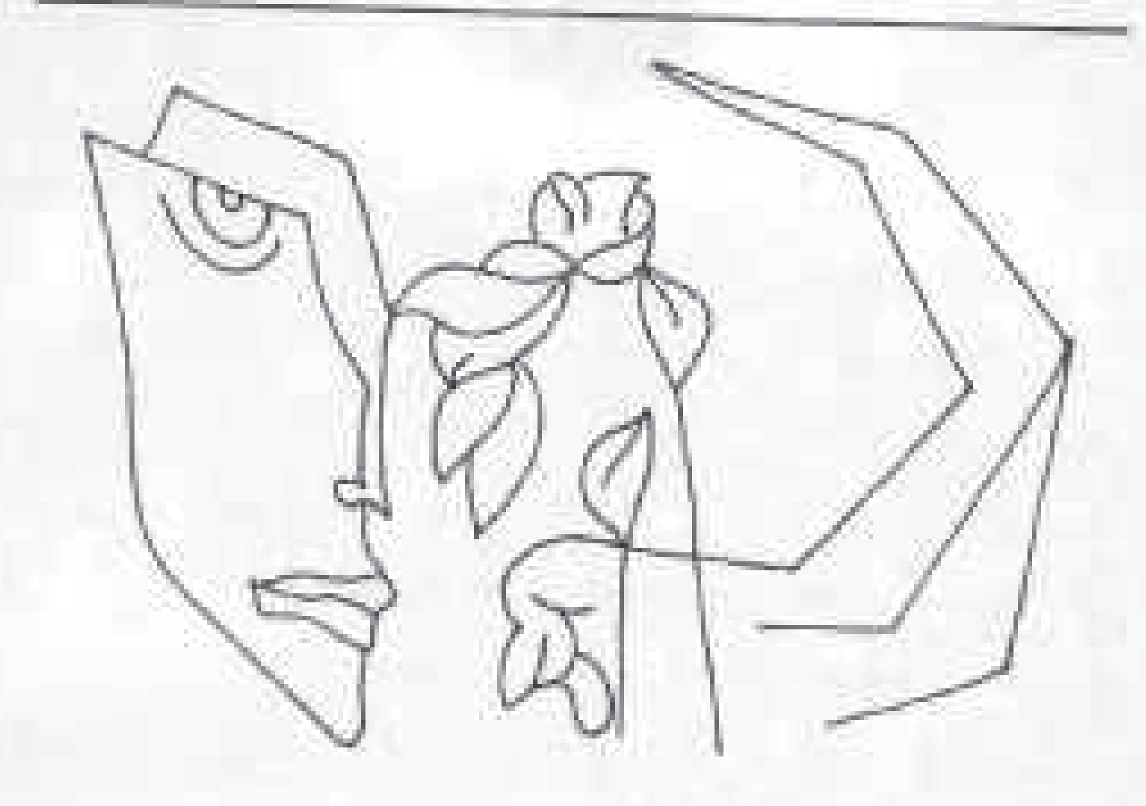
رجحنا ـ نحن أعضاء لجنة تقصى الحقائق ـ أننا لن نمسك بشيء ، ولن نعثر على أى أثر لحبوب منع الحمل المطحونة ، مضافة ـ كهرمونات للتسمين السريع ـ الى غذاء الدجاج المعد للذبح فى هذه المزرعة الكبيرة . فلقد أبدى المالك ترحيبا شديدا بمهمتنا ، ترحيباً يعكس فرط ثقته بنفسه وبترتيبات مزرعته ، ويعكس تهكما ـ يبطنه ـ منا ومن مسعانا . ومع ذلك ، وربما بسبب ذلك ، إضافة الى ضرورة التسديد الروتينى لخانات المهمة ، شرعنا نلتقط عينات مختلفة من ماء المساقى والعليقة والزرق ، للفحص ، وقررنا أن ننتقى بضع دجاجات حيّة نحملها معنا للتشريح ولأبحاث المعامل الحيوية ، لعلنا نكتشف شيئا ، وان كنا قد أجمعنا على ارجاء ذلك حتى نهاية الجولة .

فى أول مرورنا بالعنابر المقفلة داهمنا صهد ، ورطوبة مرتفعة ـ قدرنا نسبتها بأكثر من سبعين فى المائة . وكانت المصابيح الكثيفة المنتشرة فى السقف وعلى الحيطان تسطع حارة وتنصب على أكداس من الأقفاص السلكية الحاوية لدجاج من الهجين الأبيض الكريمى ذى الأعراف البرتقالية القصيرة ، من أنواع الليوكلز والهوبارد والبلش والهيرو التى يصعب التمييز بينها . ولفت نظرنا أمران ، أولها : حشد هذه الأعداد الهائلة من الدجاج فى حيز بدا لنا ضيقا على نحو ما . والثانى : استخدام رجال من الأقزام المعضلين كمراقبين داخل العنابر ، يمسكون بعصى طويلة تنتهى فى ناحية منها برؤوس حراب صغيرة وفى الناحية الأخرى بخطاطيف مسننة تشبه مناجل دقيقة للحصاد . ولقد استشعرنا حرجا ولم نجد مناسبة لمفاتحة المالك فى أمر الأقزام ، لكننا سألناه عن هذا الجمع الحاشد للدجاج ، فأكد لنا بشهادة رسمية ـ أعطانا صورة منها ـ أنه لم يتجاوز قانون المزارع : . . . اثنا عشر طائرا فى المتر المربع من كل طابق من طوابق الأقفاص وكان كلامه صحيحا بدلالة مسح سريع أجريناه فى أكثر من بقعة ونحن نمضى .

بدأنا نتبين التنسيق الصارم داخل العنابر التى بدت لنا ـ فى أول الأمر ـ عشوائية التكديس . لقد كانت الأقفاص المصنوعة من سلك الصلب المجلفن تنتظم فى بطاريات تضم كل منها عددا من الأقفاص ، تتلاصق فى صفوف ، وتتصعد هرميا فى طوابق . وإذ تتراص البطاريات ظهرا لظهر ، وجنبا لجنب ، ثم تتعاقب ، يبدو المكان كساحة تزحمها جيوش من الدجاج المنضبط طوابير

طوابير داخل صفوف الأقفاص الممتدة بطول العنابر .. كل دجاجة فى قفص ، وكل الأقفاص محكمة ولا تسمح بأكثر من أن تمد الدجاجات رؤسها والرقاب عبر فتحات فى واجهات الأقفاص ، كالنوافذ الضئيلة ، تطل منها فتجد تحت مناقيرها خطوطا دوارة من سواق لا يفرغ ماؤها ، ومعالف لا تكف عن الامتلاء بفعل سلسلة تجرى فى باطنها فتجر معها العليقة . هذا بينما تمضى تحت مؤخرات الأقفاص خطوط أخرى كمجار من الصاج تجمع الزرق وتخرج به الى حجرة جانبية من فتحة فى الجدار العرضى للعنبر. ولم يكن هناك من دور للأقزام على ما يبدو الا أن يدوروا ويدوروا فى الممرات بين صفوف الأقفاص ، يتخرون بأسنة الحراب كل دجاجة يغالبها النوم ، ويخرجون بالخطاطيف ـ بعد أن يفتحوا أبواب الأقفاص بها ـ تلك الدجاجات التى تنفق . ويلقونها على سير متحرك فى الخلفية يغادر العنبر حاملا ، ويأتى خاليا عبر فتحة فى الجدار تجاور فتحة خروج الزرق .

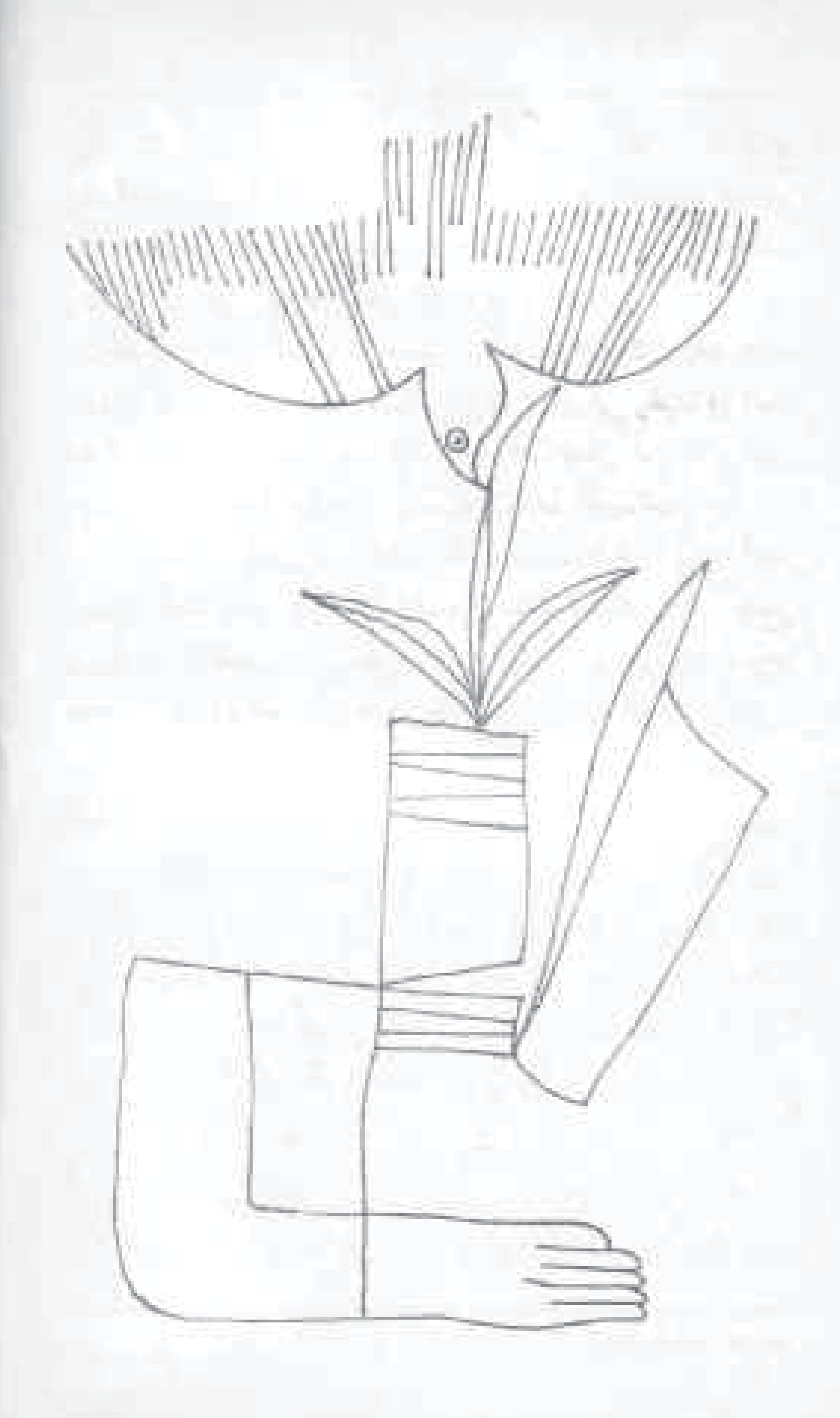
كان الماء فى المساقى عادى الرائحة والمظهر باستثناء حمرة خفيفة لبرمنجنات التطهير المضافة اليه . وكانت العليقة تبدو عادية أيضا وان كان أحد أعضاء لجنتنا قد أكد بعد أن تشمم حفنة منها وأمعن فيها ، أنها مكونة ، اضافة الى المعتاد من النخالة والملح وزيت اليسون الفاتح للشهية ، من مسحوق الدم المتجمع أثناء الذبح ، ومسحوق لحم وعظام الدجاجات النافقة ، وبعض الزرق بعد معالجته . ولم ينكر المالك هذا ، بل راح يؤكد على أن ذلك يتم فى حدود النسب العلمية ، وقدم لنا



كتيات بالانجليزية ثم اعتمادها محليا وبها جداول لتركيبات مختلفة من أعلاف الدواجن المحتوية على مخلفات معالجة . ولقد لفتنا هذا الى حشود الدجاج التى كانت تلتهم من العليقة بما يشبه شهية خرافية ، فهى لا تنام عبر أسابيع دورة التسمين المكثفة كلها ، اذ تبقيها المصابيح الحارة التى لا تنطفىء ووخزات حراب الأقزام يقظى ، فتمد رقابها وتخفض الرؤوس بـاتجاه خطوط العلف وتنقر . تنقر ، فتعطش . تعطش ، فتشرب . تشرب ، ثم ترفع رؤسها لكن يعشيها الضوء ، فتعود تطأطىء ، وتنقر . وتكرر ذلك ، بلا توقف ، ولا ابطاء ، حتى فى لحظات لفظها للزَّق .

تكاثف احساسنا بالضيق ونحن بعد فى منتصف الجولة ، ربما بتأثير الرطوبة المزعقة والصهد الخانق والضوضاء التى كنا ننتبه

اليها أكثر فأكثر والتى كان يحدثها النقر المتواصل لحشود الدجاج بمصاحبة أزيز المحولات الكهربائية المتصلة بالمصابيح ، هدير الموتورات ، والصوت الدائب لدوران خطوط الماء والمعالف ومجارى الزرق . ورحنا ننظر الى الأقزام العاملين فى هذا الجو كمخلوقات ذات استعداد خاص للتأقلم ، مما كان يضاعف شعورنا بعدم القدرة على احتمال المزيد ، ويزكى رغبتنا فى انهاء الجولة عند هذا الحد . وما كاد واحد منا يعلن عن ذلك حتى حصل على موافقة مطلقة ، وشرعنا نلتقط العينات الحية .. فتحنا قفصا .. اثنين .. ثلاثة ، ثم توقفنا مدهوشين لرؤية أحد أعضاء لجنتنا وهو يندفع كأنما لسحة خاطر مفاجىء .. يفتح مزيدا من الأقفاص .. يفتح ، يفتح بفتح ، ويهتز بجنون وهو يفتح .. أبدا لم تقفز خارجة من قفصها ، ولا تقلقلت دجاجة .



البلاد البعيدة

كانت الشبورة الشتائية الهشة البيضاء تحجب وحشة الشوارع والأزقة الخالية من الناس ، وتطيب واجهات البيوت التى كنت أخافها تصحو وتضبطنى وأنا أفر ، وكنت خالعا حذائى أمسكه بيدى كأنى أخشى لو تصدر قدماى دبيباً يسمع ، فيمسك بى ، وخطواتى تسارع كتسارع وجيب القلب الصغير الذى كان مخطوفا للقدام .. للقدام . قطرات الندى كانت تبل قدمى بدغدغة حلوة ، فأضغط بهما وهما ترطمان الأرض التى أهرب منها غير نادم أبدا ، وكأنى أتدحرج ملهوجا لأرتمى فى حضن يتطرى ويوسع لى الصدر ، والأذرع مفتوحة لتضمنى حالاً . . . حالا ، فى قطار ما أبدعه بى يسافر .

نفذت الى ساحة محطة القطارات عبر فتحة فى السور كنت أرصدها من زمن وأكاد أحفظ كل تعريجة تؤطر محيطها الحنون .. نفذت متلفتا خافقا قامتى ، محتضنا حذائى وحقيبة المدرسة الدمور التى أودعتها « زوادة السفر » ، ثم اختبأت وراء عمود اشارات رأيت فانوس هامته الاحمر منورا مبهجا يبين رغم الشبورة ، وكنت أفتش بعينى : أى القطارات سأركب ، وفى أى عربة سيكون اختفائى .. وكدت أبكى لحيرة أمسكت بقلبى الواجف : ترى أى القطارات يروح بعيدا لأركبه ؟ وقد كانت أمامى زحمة من قطارات تطرس الأرصفة ، أرى مقدم بعضها وبعضها لا يطالعنى الا بأواخره ، ثم رأيت أشباحا داكنة غير بعيدة عنى تشغى بحركة أخرجتنى من قبض الحيرة .. كانت الاشباح لرجال يلبسون أردية خضراء بها أزرار نحاسية .. كانوا يروحون .. يختفون للحظات .. ثم يعاودون الظهور وقد انحنوا يحملون أشياء على أكتافهم ، وكنت أتساحب من وراء الاعمدة لأتمكن من رؤيتهم عن قرب دون أن يلحظ أحدهم وجودى . كانوا يحملون رزما من الجرائد ويدخلون بها واحدة من عربات قطار ويخرجون بدونها ، ثم أنهم بعد ذلك راحوا ، غابوا قليلا ، وعادوا يدفعون أمامهم بعربات حديدية صغيرة محملة بأجولة مخططة ، مغلقة ، مختومة ، وتوقفوا أمام عربة قرأت عليها كلمة « بريد » مكتوبة بخط جميل كبير وبلون أحمر ، وشرعوا - وأنا أكاد أبرز لهم لفرط ما فرحت - ينقلون الأجولة إلى داخل هذه العربة التى كانت آخر عربات القطار . كنت أعرف

أن البريد يعنى « الجوابات » .. الجوابات التى تروح الى كل الدنيا وتصل الى كل البلاد حتى لو كانت أبعدها .. ولابد أن بهذه الاجولة « جوابا » مرسلا الى « البلاد البعيدة » .. وكدت أتطاير وأطير لادخل هذه العربة التى وجدت فيها أول عصفور ينطلق حقيقة بحلمى .. لكن أول التحقق هدهد تطايرى ..

تريثت مغتبطا أقعد وراء ساتر لاراجع « زوادة سفرى » مثلما كان يفعل أبى قبيل سفره .. ها هى ذى البيضات الثلاث التى سرقتها من عشة الدجاج وسلقتها خلسة ، وها هى الارغفة الثلاثة التى بدأت بتخبئتها تحت ملابسى عندما أخذتها ، وها هى قطعة الجبن القريش لكنها تفتت فى الورقة مضغوطة فى لوحة الاعداد ، وها هى حبة الطماطم ، وجميل انها لم تُفعص وبقيت سليمة ، وأعدت هذا كله مرتبا الى حقيبة المدرسة الدمور ذات الاذنين من نفس القماش تُحمل منهما ، فوسعته جميعا ، بل رحبّت بفردتى الحذاء أيضا . وراجعت « ماليتى » : تسعة قروش ، ادخرتها بعناء كثير ، وحفظتها مصرورة فى منديل لم يكن ليفارقنى أبدا .. ربطت طرف المنديل فى عروة بنطلونى ثم أدخلت الصرة فى الجيب الصغير ، ونهضت أراقب عربة البريد وأشباح الرجال الحمّالين ، وما كادوا يختفون للحظة حتى جريت وكأنى أطير ... مرقت فى طراوة الشبورة الكثيفة ، وقفزت الى داخل عربة البريد أختبىء وراء زحمة الاجولة المخططة .

وما لبثوا حتى جاءوا دون أن أراهم . كنت أسمعهم فقط ، يحدثون جلبة ويتكلمون بأصوات خشنة عالية ، واقفلوا باب

العربة فابتلعت الظلمة ما كان منتشرا حولى من نور رصاصى يبتدى به النهار .

أحسست بتواصل الرعدة الطيبة تسرى فى بدن القطار ، وسمعت جرسا يدق وصفارة تزغرد ، ثم عندما لطمت الأجولة الواقفة بدنى المكور خلفها وهى ترجع . . عرفت أننى أنطلق ، وكانت دمدمة القطار تتشحرج فتتكتك ثم يكون مع الإسراع هدير . . وأنا فرحت بهذا الهدير ، إذ كنت عارفا رغم الظلمة أن الأرض تطوى وتخلف فى الوراء . . ومن فرط فرحى خرجت من بين الأجولة أتطوح ، وأثبت قدمى بأرض العربة حتى لا أقع ، أو أتلاطم مع الجدران الحديدية ، وكان قلبى المخطوف لقدام ينط فرحا فى صدرى وأسمع صوت نطه ، ووددت لو أعرف أغنية أغنيها على إيقاع هذا الوجيب الفرح ، وواتتنى الرغبة : أن آكل كل زوادتى ، لأنى عندما أفرح أجوع ، وشيئا فشيئا كانت عيناى تتعودان الظلمة فأرى المكان حولى أقل غموضا وأكثر إيحاء . .

رحت أحب كل البلاد التى أطمح إليها وإليها ينشدّ الفؤاد : « مصر » التى جذبنى إليها حديث أبى والآخرين . . أم العمائر العالية التى يبين تحتها البشر كأسراب نمل ، والترام ـ القطار الذى يمشى فى الشوارع وتركبه الناس حتى لا تتعب أرجلهم وهم ذاهبون إلى كل الأماكن المدهشة الجميلة : « جنينة الحيوانات » التى بها الفيل أبو زلومة تركبه العيال وهو طيب لا يؤذى ، وسيد قشطة الذى فى الماء يغطس ويقب ، والأسد المخيف المحبوس ، والسناتيس التى تقزقز لبا كبنى آدم وتحب الموز والفول السودانى ،

وكبتى أدم تفرح حينا وحينا تغتاظ . وأبو الهول الذى نصفه انسان وراسه رأس أسد يطول السحاب وجنبه يكون الهرم الذى من يبلغ قمته يلمس بيده سقف الدنيا . ياه . . . مصر . . .

واسكندرية . . اسكندرية ببحرها الذى ليس له آخر وفيه المراكب تسافر الى بلاد الخواجات ذات الثلج ابيض كالحليب .

وفيه كل الناس تعوم . . يبلبطون ويضحكون ويصيدون السمك الكهربا والملون وأم الخلول اللذيذة والمحار الذى عندما تميل عليه الأذن تسمع وشوشة وكلاما عجيبا كله ، ثم تجاوزت هذه البلاد مصر واسكندرية ، وبعدت . . بعدت الى البلاد البعيدة : ذروة حلم صحوى ونومى البهية الألوان . . بلاد بعيدة لم أكن أعرف أساميها ، لكننى كنت موقنا أنها بلاد ليس فيها مدارس بائخة حولها أسوار خانقة وداخلها يتربص مدرسون غلاظ الوجوه والقلوب يغرزون أظافرهم فى (صرصور) الاذن ويضربون بالعصى على اطراف الاصابع وعلى ظهور الأيادى فى الشتاء وكثيرا ما يضربون على المؤخرات حيث يكون الواحد المضروب ذليلا مهانا لا يستطيع أبدا الافلات من وضع (الغبْط) بينما يمسك باليدين اناس كان يظنهم الواحد أخوة له فيكتشف أنهم زبانية للمدرسين الغلاظ ، بل زبانية قساة يشدون اليدين والواحد مثنى على الدرج شدا بشعا يؤلم احيانا أكثر من ايلام الضربات التى تهوى على المؤخرة المسكينة . . آه . . بلاد بعيدة . . بلاد لا يفاجأ فيها الانسان بلطمة على الصدغ ترج الدماغ اذا ما شرد يحلم . . بلاد لا يُجبر فيها الانسان على

الاستيقاظ فى الصباحات الباكرة الباردة ويقتلع من دفء الأسرة اللذيذة ليذهب الى مدارس سخيفة لا تعطى شيئا الا الضرب والشتم وكتم الأنفاس والتذنيب بالوقوف ورفع الايادى أو بالركوع على حصوتين لساعات طويلة . . . بلاد كبيرها مثل صغيرها حيث لا تكون السن حجة تجبر الصغير على الذهاب الى مشاوير بلا معنى ، وبعد المجىء منها لا ينقطع التوبيخ . . بلاد بعيلة . . بلاد ليس بها (دكاكين) يذهب اليها الصغار بعد الخروج من المدارس السخيفة فيشتمون مزيدا من الشتم ويذنبون أيضا لكن هذه المرة بحمل منشات يروحون بها على وجوه لا تختلف فى غلظتها عن غلظة وجوه المدرسين ثم تكل أياديهم من حمل الطلبات ، ولا يخلو الامر من ضربات تهوى وتكون هذه المرة بشىء من حديد وبغير سابق انذار . . . بلاد ليس فيها بيوت تأكل ، كل يوم كل يوم ، كشرى أو بصارة ولا تزورها أبدا الفاكهة الحلوة ، بينما لا تنقطع فيها الامهات عن النزول على البدن بكل دعوات المصيبة والطاعون والنقطة والسخونة الحامية وضربة الدم والقرس من (اللباليب) والعمى فى الظهر ، ومع ذلك لا يكف نواحهن والبكاء ! . بلاد ليس بها آباء يسعلون بلا انقطاع ويبصقون دما أحيانا وتتحشرج أنفاسهم كثيرا ويزعقون دائما ، ودائما يتهالون على المرء لطما وركلا دونما سبب ولا يبرح الحزن وجوههم رغم ذلك . بلاد ليس فيها أولاد يضربون بالطوب ويعضون اذا ما تعاركوا ويسرقون من بعضهم البعض البلى و (الكازوز) وحتى نوى المشمش الذى تصنع منه الصفافير يسرقونه ، ويدمنون الفتنة لبقع الايذاء على الاخرين

بالكذب ومع ذلك لا يسلم أحدهم من شر الايذاء . حتى الكلاب الجربة التعيسة تغدر بالعض ، والقطط النحيفة تخطف ما تلقاه . . ياه . . بلاد ليس بها هذا الغم . . بلاد بعيدة لم أكن أعرف أساميها ، لكنى كنت أرى فى الظلمة الأثيسة كل دروب غاباتها الخضراء وكل أشكال شجرها الملون المثمر ونخيلها الخفيض المثقل بالرطب ، وكنت أعرف لغة كل حيواناتها التى تصاحب الانسان وتكلمه وأعرف بالطبع لغة ناسها العراة المسالمين الذين لا يقاسون حرا ولا بردا وسلامهم ليس بالايادى بل بالابتسام . . بسمة تعنى السلام عليكم ، فترد البسمة بسمة مثلها . . بلاد لا تخلو من ملائكة تطير بأجنحة من فضة وذهب ، فتضيء دائما ، تحفها عصافير ملونة تصدح بموسيقى وغناء . .

بلاد أنهارها تنبع من عيون فى جبال خضراء وتجرى بعسل وماء حلو ، ولم أكن لأكف عن الحلم بها أبدا ، وسافرت اليها روحى آلاف المرات فى أحلام كنت أتيحها لنفسى رغم كل شيء . وقد كان القطار يهدر وأحسه يطير إلى البلاد البعيدة ، فأحس بالجوع . . وكنت أرتب للطعام فى الظلمة دون أن أغادر صور هذه البلاد ، مطمحى . وتحسست جوالا مسطوحا من أجولة البريد واقتعدته ، وعندما مددت يدى فى حقيبة الدمور التى لم تفارقنى ألتمس الزوادة لآكل : إنّ الكيس تحرك . . انّ الكيس فتيت فى جلستى ، ثم إن الكيس صرخ بكلام غريب . . رفيع الصوت . . قال : « اه صدرى . . حرام عليك . . أفطس حرام عليك . . خرّجنى » وكان تيسى ينحل وأنا أسمع

ذلك فتطير من يدى حقيبة الدموز . . تتبعثر الزوادة فتضرب البيضات والأرغفة وحبة الطماطم وجه شجر البلاد البعيدة ، وناسها ، وحيوانها . . فتتقلص جميعا وتعبس وأنا خائف والعربة المقفلة ليس بها من مهرب ، ثم سمعت الصوت الرفيع يتوسل أن أخرجه ، وتأكدت أنه صوت رفيع بالفعل بل رفيع وهش . . صوت بنت ، فرحت أنحنى نصف مطمئن ونصف خائف . . أرتعش وأنا أفتح فوهة الجوال . . أفك عقدة الحبل المشدود خلال عراو معدنية وأرخيه ، ثم أحسست بشىء يرف ويطول ويخرج من الجوال حتى انتصب صغيرا فى مثل طولى يقف فى مواجهتى ، ولم أعد أرتعش اذ تأكدت من كون هذا الشىء بنتا . . . بنتا صغيرة مثل كانت الظلمة التى خفت كثافتها تبينها لى شبحا أحسست احساسا غامضا بطيبته ، ورحت أتأكد من ذلك . سألتها عمن تكون فأخبرتنى ان اسمها نوارة وانها كل يوم كل يوم تختبىء فى جوال وتنام فى القطارات لكنهم فى هذا اليوم ربطوا الجوال ربطة متينة ، وسألتنى فقلت لها أننى مسافر . . مسافر الى مصر واسكندرية و . . . وضحكت وهى تخبرنى أننى خائب ولا أعرف ، وأن القطار الذى يروح مصر لا يروح اسكندرية فى نفس الوقت ، وكنت مستغربا لهذا لكننى مطمئن اليها وأدرك بشكل غامض أنها صغيرة مثلى لكنها تعرف الكثير . . واكتشفت ، بل هى التى نبهتنى الى وجود ثقب فى جدار العربة تنفذ خلاله حزمة رفيعة من الضوء الذى كانت تسبح فيه ذرات الغبار متحركة ببطء . . كان الثقب فى مستوى قامتينا فجعلنا نتبادل النظر الى الخارج من خلاله . . أرى حقولا

تطوى وشجرا قريبا يمرق مع اعمدة تحمل أسلاكاً ، ووراءها فى البعيد تجرى فى اتجاه معاكس لشجار داكنة تصنع قوسا لا يبلغ طرفه القطار أبدا ، وعندما أخبرت نوارة أن الاشجار تجرى ضحكت وأخبرتنى أن الاشجار لا تجرى بل ان القطار هو الذى يجرى ، وفكرت فى ذلك فتيقنت أنها صغيرة حقا لكنها تعرف الكثير . وكنت أسألها كلما توقف القطار هل جاءت مصر فتنظر من الثقب وتخبرنى أنها لم تأت بعد ، وأخبرتنى أن محطات أخرى كثيرة ستأتى ويتوقف عندها القطار قبل أن يصل الى مصر .

وكنت أصدقها . . كنت اصدقها واطمئن اليها وفكرت لو تأكل معى ، فانحنيت أبحث عما تناثر من الزوادة . وعندما رأتنى نوارة سألتنى عما افعل ، فقلت لها ، وسألتنى ان كنت سأدعها تأكل معى فأجبت بنعم لاشعر بها كأنما ترقص وتزقزق فرحة . . صوتا صغيرا كانت وصوتا صغيرا كنت ، وجمعنا من أرضية عربة القطار السوداء ما أمكننا : رغيفين وبيضة وحبة طماطم وفتافيت من قطعة الجبن القريش . . قعدنا واقتسمنا كل شىء ، ومع أول لقمة بدأنا نحس بهواء مسموم بالبرد يلفحنا معا ولا نعرف من أين يأتى لان الثقب وحده كان صغيرا جدا . . أخذنا نتضاغط ، ونتحرك مرتبكين لنهرب من هذا البرد ، فندخل بين الاجولة الواقفة . . فرغت من بين أيدينا الارغفة الاثنين والغموس القليل وكانت الأجولة الواقفة تحوش عنا الهواء لكن البرد كان مصرا على التسلل ليلسعنا معا ، فرحنا نفرغ أحد الاجولة لندخل فيه لعلنا نختبىء من البرد ـ كنا قد فكرنا فى

ذلك ـ وكانت الخطابات تخرج فتعمل رفرفة فى خروجها وقالت نواره وهى تقصد صوت خروج الخطابات انها مثل الحمام الذى يطير وكان هذا صحيحا وجميلا حتى اننى وددت لو أفرغ كل الاجولة لاسمع هذه الرفرفة من جديد ، لكن البرد كان شديدا وكنت اتعجل الدخول فى الجوال الذى أفرغناه . دخلت الجوال ثم راحت تتبعنى نواره ، لكنها لم تستطع اذ كان الجوال لا يسعنا هكذا ، فخرجت . ووقفنا حائرين نتساءل : كيف يسعنا الجوال معا ؟ وفكرت أننى ارتديت كل ما عندى من ملابس قبل ان اخرج حيث كان الصباح شديد البرد وانا أتسلل من البيت .

وأخذت اخلع بعض ملابسى لعلى أكون ارفع فيسعنا الكيس ـ نوارة وأنا ـ معا . وسألتنى عما افعل . . . وقبل أن أجيب عادت تسالنى ان كنت عريسا لاخلع ملابسى ؟ استغربت ماذا تعنى ، وسألتها لماذا تقول ذلك ، فأخبرتنى انها شافت : كانت تخدم عريسا وعروسة وشافت . . شافتهما : العريس ينام عريانا وعروسه معه تنام عريانه ، وفى الصباح تقوم العروس لتطبخ طعاما ويروح العريس الى الشغل ، وأخبرتنى نوارة انها كانت تسمعهما يضحكان فرحين بذلك ، وسألتنى لو نعمل عريسا وعروسة ، وكنت مدهوشا وأحب منها أن تقول كثيرا فى ذلك فقد كان هذا الشىء يشبه ما يكونه ناس البلاد البعيدة التى أنا ساع اليها . ورحنا فرحين نرتعش من شدة البرد ونحن نخلع كل ما نلبس . . رغم البرد كان هذا الاحساس بالعرى جميلا وفكرت ان السمك لابد يكون فرحان ، ووددت لو أعود عاريا

هكذا فى ماء ، وفكرت لو أن الماء يكون دافئا ليصبح هذا الشىء أجمل ، وانزلقت فدخلت الجوال بسهولة ، ثم دخلت تنزلق لصقى نوارة ... ووددت لو انها تخرج وتعاود هذا الانزلاق .. لقد كان ذلك أجمل وأعذب حس جربته .. ان يشعر الانسان بنفسه محررا وخفيفا ويسيطر بسهولة على كل أطرافه كأنها جميعا بقربه .. ثم فى البرد يجد الانسان شيئا فيه طراوة ودفء ونعومة يمس جلده ، ويكون اللمس أنيسا ، وتتسع مساحة هذا اللمس حتى يود الانسان لو يلمس جلده جميعا فلا تترك قطعة ولو صغيرة بغير هذا اللمس .. خليط باهر من الدفء الحنون والدغدغة واللعب والايناس ، ثم وجدت يدى تشقان طريقا فى هذه الزحمة لاحيط (نوارة) بذراعى ، وكانت هى تفعل ذلك ايضا ، وحقا كما قالت كان هذا الامر يجلب سعادة من لا شىء حتى أن الانسان يحب كثيرا أن يضحك .. لقد كنا نضحك حتى نسمع صوت ضحكنا أعلى من هدير القطار ... واكتشفت لذة هائلة فى أن افرك جلدها بجلدى وأن تفعل هى نفس الشىء ..

كنت أتحرك وهى تتحرك فتحتك صدورنا ، ونرفس فتتخلل سيقاننا بعضها بعضا باحتكاك ، وكنت أمرغ وجهى فى وجهها حتى تحتك الخدود ، وأحسست بشىء لم يحدث لى أبدا من قبل ، وقد سألتنى عنه نوارة فلم أعرف جوابا ، وكنا لا نتوقف عن هذا الحراك الذى يفرك الجلد بالجلد ، حتى أننا نفضنا عن الجوال ترابا كثيرا جعلنا نعطس ، فتوقفنا وقد أحسسنا بالتعب وكان هناك فى الضم رفق وهى تحضن بكفيها الصغيرتين ظهرى ، وأنا

احضن ظهرها بكفي ، وتلمست عظام ظهرها الدقيقة الى حد أن شيئا لا يغطيها الا هذا الجلد الرقيق الدافىء ، فصعبت علي حتى أنى خفت لو أبكي وقلت لها بغير ما مناسبة وفجأة أنى سآخذها معي الى البلاد البعيدة وكنت أضمها بشدة فلانت تطاوعني حتى أنها تقلصت فأصبحت صغيرة جدا في حضنى ، وسألتنى عما تكون هذه البلاد البعيدة . ظللت أوغل في الحوال وأنا لا أتركها ولمست فوهته كأننى أغلق بابا لنكون في مأمن وأقول لها سرى .. وفي الظلمة الودود ، والدفء الطيب ، ورائحة التراب والكتان والمطر التي لم أميز ابدا من أين تنبعث .. منها ، أم مني ، أم من جوال البريد ، وفي الأثر الضعيف من الصوت الذي بقى من هدير القطار وشيئا نكاد في مكمننا نسمعه . رحت أوشوشها .. حكيت لها عن البلاد البعيدة وكنت أهمهم زخرفة نسيجي .. جزائر في بحر ليس له آخر ، وغابات من بين شجرها الولود الدانى الثمار تطلع الشمس .. قلت لها أنى سآخذها معي لنأكل من هذا الثمر الدانى الكثير الالوان المسكر ، وقلت لها كثيرا حتى وجدتها تنعس في حضني واسمع رفيف أنفاسها ، ولابد أنني نعست مثلها اذ فتحت عيني مذعورا فجأة ....

احسست ببرد يصب على نخري ، وكان الضوء يقرع عيني ، ووجدت أصابعي تتشنج لا اراديا وهي تتشبث بفوهة الجوال وكان هناك وجه فظيع ينظر الى بالشر من قريب ، تحمله عنق غليظة تدخل في جاكتة سوداء خشنة تبرق فيها أزرار من

نحاس ، وكانت هناك خيزرانه رفيعة أراها تظهر مارقة في ساحة ما أبصر ثم تغيب فأحسها تضرب على الجوال . . كانت بعض الضربات تقع على مكان بدني ، ولابد أن بعضها الآخر كان يقع على مكان بدن نوارة التي كانت لا تزال متشنجة وأن استيقظت ولم تجد شيئا تتشبث به غير جسمي . ثم أني تنبهت إلى صوت الرجل الفظيع يأمرنا أن نخرج من الجوال وهو لا يتوقف عن الضرب .

وكان يلفح وجهي برائحة فظيعة تخرج من فمه مع الأمر والشتيمة ، ثم أحسست بشعري يكاد ينخلع وفروة رأسي تشتعل بألم هائل . . لقد كان يسحبني من شعري ليخرجني من الجوال ، وكانت يده كبيرة تلم شعري كله وأحس أصابعها تكاد تحطم صندوق دماغي . . ووجدتني أخرج ، ساحبا معي نوارة التي تعلقت بوسطي ، لا أعرف لماذا تذكرت صورة أرنب مذبوح تسلخ فروته في هذه اللحظة . . كنت عاجزا عن الصراخ وعن البكاء وقد يبست ولم أستطع حتى أن أطيع الذي أدركت أنه عسكري يأمرني أن أقف وهو يلسع جسمي بخيزرانته ، وكانت نوارة متيبسة أيضا وقد تحجرت أذرعها حول وسطي ، فتنال كثيرا من الضرب ، والعسكري يأمرها ويناديها بشتيمة أن تتركني . . ثم كان بدني العريان ومعه بدن نوارة يكنس تراب أرض عربة البريد الباردة ، ويتهيأ عند عتبة الباب ليكنس هذه المرة تراب الرصيف الساقع ، وكانت اليد الرهيبة تفعل هذا كله بشدي من شعري . . ثم تغير اتجاه الشد إلى أعلى ، ووجدتني أنتصب واقفا ، فوقفت جنبي نوارة وانفصلت عني

أخيرا ، فرأيتها جميلة ومعفرة رغم شحوبها الذى جعلها بلون شمعة ، لكنني لم أرها أكثر اذ عاد ضرب الخيزرانة يهوى .. لقد أوقفنا العسكرى وظهورنا يأكلها جدار كالثلج ألصقنا به وانهال يضرب وهو يهددنا بالموت لو حاولنا الجرى ، ثم أوقف الضرب عندما وضع الخيزرانة تحت إبطه ، وخلع من حزامه قيدا حديديا وضع فى حلقة واحدة منه يدينا : يدى اليسرى ويد نوارة اليمنى ، وساقنا وسط الرحبة القاسية عريانين تحت السقف الجمالونى الكالح حتى أدخلونا الى حجرة ، وجاء عساكر آخرون ، ثم قلبونا على ظهورنا ورفعوا أقدامنا الى أعلى حيث وضعوا الأقدام فى فلكة واحدة برموا حبالها طويلا حتى تمسك جيدا بالأرساغ النحيلة فلا تتحرك .. كانوا يرفعون أنا ـ نوارة وأنا ـ « حرامية الطرود » اللذان أمسكا أخيرا . أخذوا يسألوننا عمن « يشغلنا لحسابه » وعن أشياء زعموا أننا سرقناها ، وكانت الأقدام الصغيرة تشوى بعصا من الجريد .. كانت نوارة تصرخ صراخا حادا متواصلا وتقول أنها لم تسرق شيئا . وكنت أقول أصرخ أيضا وأحس مع الضرب بدموع تنسكب حارة لتسيل على جانبى وجهى وتبل شعرى وأذنى .. كنت أقول أننى لم أسرق شيئا ، وأخبرهم بأننى كنت مسافرا فقط .. مسافرا الى « مصر » والى « اسكندرية » و .. وخفت لا أدرى لماذا أن أقول : « البلاد البعيدة » .. خفت ، وكان ألمى وصراخى مشوبين بخجل غريب من نوارة ، حتى أننى لم ألتفت أبدا لأراها وقد كان صراخها الحاد المتواصل يذبح فى كسكين ، ثم توقفوا عن

الضرب وفكوا حبسة أرساغنا وكنت لا أستطيع الوقوف توا . ثم أحضروا الينا ملابسنا فلبسناها ، وسمعتهم يتكلمون عن أشياء مثل : « ابداع مؤسسة أحداث » و « تسليم بتعهد لولى الامر » ، ولم أكن أفكر فى هذا أبدا . . كنت أفكر لو أكبر فجأة واستطيع ضربهم جميعا . . وكنت خائفا ان أصبح عاجزا عن المشى عندما أكبر هذا لما كانت عيونهم تتحول عنى كنت أجرب قدمىّ . وكانتا تتحركان .



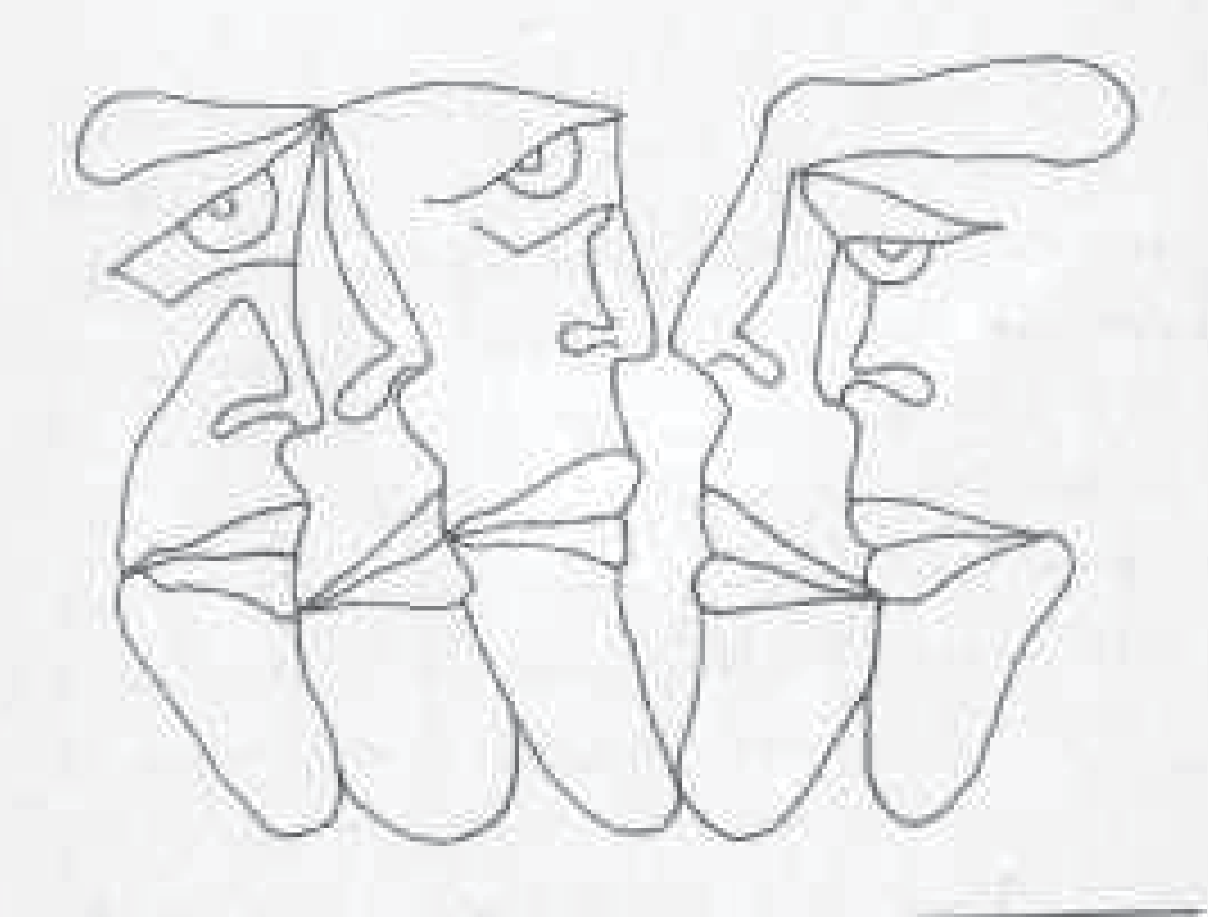

الأسوار

وهم تفر من المسجونين لديه ، كان رأس السجن الكبير يخشاهم . .

يخشى بالذات معرفتهم الدقيقة بلائحة السجون وتمسكهم الشرس بتزير مالهم من حقوق ، ولولا هذا لأصدر أمره بمنعهم من مغادرة الزنزانات وحرمانهم من طابور الفسحة فى أرجاء حوش السجن المتقلص ، لكنهم كانوا ملتزمين بنظام المسجونين حتى وهم يصعدون سلم مستشفى السجن فى طابور الفسحة ، ويقفون بأعلاه طارحين صدورهم على الدرابزين . . يمدون رقابهم ويحدقون طويلا فى شيء ما ، كأنهم ينتظرون هذا الشيء يأتى ويبصرونه خارج الأسوار ، وهم يفعلون ذلك باستمرار منذ جاءوا ، وفى وقت الظهيرة بالتحديد ، حيث فى لحظة معينة :

يبدأ واحد منهم فى التلويح لشىء ما خارج السور فيشرعون جميعاً بعده فى التلويح . .

هل كانوا يعطون إشارات . ما . لأحد فى الخارج ؟ هل كانوا يقذفون بأوراق أو خطابات وهم يصطنعون ذلك التلويح الذى بدا له مجرداً من المعنى ؟ ولقد لام « المأمور » نفسه إذ لم يفكر فى هذا الأمر من قبل ويضبطهم فى مخالفة يترجمها فى تصرفهم - هذا - اليومى - الغريب ، ويودعهم الزنزانات الإنفرادية ، وربما استحقوا الجلد أيضاً ، وتنهد فى ضيق ، لكنه على أية حال قد أعد عدته اليوم لضبطهم وهم لا يشعرون . . اذ وضع أحد العساكر تحت السور فى الخارج ليراقب ما يحدث فى الشارع عند هذه اللحظة ، وأعطى أمراً مشدداً لعساكر الأبراج ان يفتحوا



عيونهم جيدا وتكون صفاراتهم على أهبة الاستعداد للإنطلاق حتى تتحرك فرقة الحرس الاضافية التى جهزها ، ثم انه أخلى الحوش ومنع المسجونين الخنائين الذين يسهل التحكم فيهم من مغادرة العنبر ، وتسلل خلسة ليختفى فى التكعية القائمة أمام المدخل حيث كان يمكنه رؤية هؤلاء المسجونين الخمسة بظهورهم وهم فوق ، ويراقبهم بدقة من خلال الثغرات الكائنة بين تشابك أفرع اللوف واللبلاب فى مكمنه هذا ، وكان مضطربا إذ راح يتبدل الجو الى برودة ، وكانت تغيم السماء .. فيما يعنى أنها ستمطر .

●

كانوا يعرفون إذ يبدأ الحديث عنهم بأنهم أصلب خمسة رجال فى المدينة التى يسكنها مليون من البشر ، وكانت تحكى عنهم الحكايات التى تبلغ حد الخرافة ، هكذا كانوا محاطين بهالة من الإكبار حتى من قبل العساكر والضباط المعينين لحراستهم ، وقد كان فى انتظارهم حكم بالأشغال الشاقة المؤبدة ، بدوا برغمه غير عابئين ورابطى الجأش مما كان يكثف حولهم الهالة ويوحى بأنهم كائنات أعلى من مرتبة البشر العاديين ويبعث دائماً بذكرى اليوم الصاخب الذى حكموا فيه المدينة وهم يحركون عشرات الألآف من البشر الساخطين .. يتظاهرون وقد امتلكوا كل الشوارع ، وراحوا يكتسحون أمامهم النقيض كمزق من ورق قديم تطيرها رياح جامحة . وعندما تبدّل الأمر ورجحت كفة النقيض قبض

على مائة وخمسين رجلاً راحوا يخرجون من السجن تباعاً حتى تبقى خمسة لم تعد تلوح لى بارقة أمل فى خروجهم : الطبيب الشاحب الصغير الجسم ذو العينين الساهمتين الغريبتي التحديق ، والمدرس الضخم الذى يبدو وهو يتنقل كأن كل قطعة فيه تتقافز بعصبية ، وعامل البناء الأسود الفارع ذو الملامح الزنجية دائم الابتسام ، وطالب الحقوق بالغ الوسامة ذو الشعر السائب المتطاير ، وفتى المعمل الربعة المدكوك

كانوا يمثلون خمس جمرات تبدو ساكنة منطفئة لكن عندما يُنفخ فيها تتهارج ملتهبة لتصنع حريقا هائلا بحجم مدينة ، وفى الفترة الأولى المبكرة من سجنهم عندما كانت نبرة السخط لا تزال تُسمع فى الشوارع كانت المدينة ـ تكاد أن تكون جميعها ـ تتوافد لتراهم من وراء القضبان . . طلاب المدارس والجامعة ، وفتيات من كل عمر ، ورجال من كل مهنة ، وحتى عجائز النسوة والشيوخ كانوا يأتون ، يتقاطرون على مدار اليوم ويأخذون فى الدوران بلا كلل حول السجن لعلهم يلمحون واحداً من « فرقة الشجعان » ـ كما كانت تدعى ثلة الخمسة ـ ويطيرون إليهم قبلة فى الهواء أو هزة يد ترسم أصابعها علامة النصر أو هتافا حماسيا أو مجرد نظرة لا تخلو من دفء المعنى بالتواصل ، وكان عساكر السور يفشلون دوماً فى ردّهم أو تخويفهم فقد كانوا كثرةً ويأتون دائماً فى جماعات .

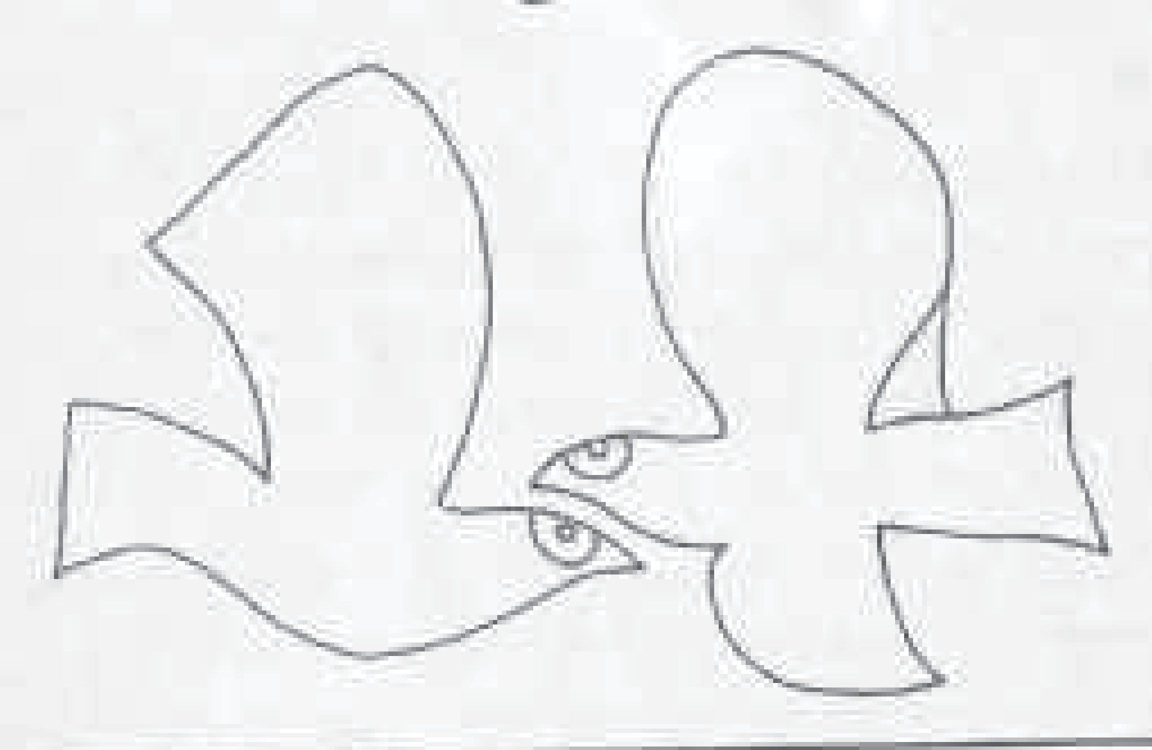
وكان بالفعل وليس بتنغيم شطرة شعر بدأ يغمغم بها الطبيب الساهم : « إن طول الجرح يُغرى بالتناسى » أخذت وفود الآتين

لرؤية الخمسة تقل رويداً رويداً حتى لم يأت زائر واحد ولفترات راحت تطول ، وكأن العالم المختزل إلى سجن تقتطع منه زيارات الناس فيختزل أكثر ، وكلما أوغلت الشهور يتحول الواحد من الخمسة الى مجرد مسجون ، وتتحول القضية التى سُجن من أجلها الى مجرد ذكرى . . مجرد ذكرى لا تؤنس كثيراً مهما كانت درجة اليقين فيها ، وكانت تظهر على الخمسة سيماء الحزن المكتوم بالأسوار ، الذى يظهر فى شكل الصفرة الشاحبة والترهل المترايدين كلما قدم العهد بالحبس ، وكانت هناك لحظة وحيدة عند الظهيرة من كل يوم تأتى للخمسة فلا يتخلفون أبدا عن لقائها ، تلك هى لحظة مرور الأطفال الذاهبين الى الاستاد والذين يمكن رؤيتهم من فوق سلم مستشفى السجن . . يمر الأولاد والبنات فى جماعة كبيرة متقاربة كعنقود ، وعندما تقع أعينهم على « ناس مسجونين » يظهرون من فوق أسوار السجن يتوقفون . . يتنادون مخبرين بعضهم البعض « المسجونين . . المسجونين » ثم يسكتون إذ يتنبهون جميعاً الى المشهد ، ويأخذون فى تأمل مفعم برقة الإشفاق الطفل . وعندما يلّوح لهم بيده أحد المسجونين الخمسة يكتشف الصغار لعبة طريفة ينسون الإشفاق . . يلوحون جميعا للمسجون الذى يلوّح ، ثم أن الأطفال يميلون أكثر الى التقليد والتنافس ، فعندما يخرج أحد المسجونين منديلا يلوح به للاطفال يخرجون جميعا مناديلهم ويلوحون ، ومن ليس معه منديل يبحث عن أى شيء يلوّح به : ورقة بيضاء أو قائلة الألعاب ، ولما يأخذ المسجونون الخمسة فى

التلويح - معاً - للأطفال بروح الأطفال ق تقافز مبتهج يلوحون بتصايح وكأنهم قلزوا وجعلوا الخمسة صغاراً مثلهم ، ومثلهم يلوحون ، ثم آن الأطفال يربدون معرفة من يخسر ويُنزل يده أولاً يستمرون ق التلويح للمسجونين ، لكن المسجونين الخمسة لا ينزلون أياديهم ، ويستمرون ق التلويح

ولما كان الأطفال وهم لا ينسون ميعاد لعبهم ق الاستاد ، يريدون الإنصراف ق نفس الوقت ألا يخسروا يتحرك موكبهم صوب الاستاد وأياديهم المرفوعة لا تنزل ، ولا تكف عن التلويح ، حتى يخلو منهم الشارع .. يخلو ويصبح مُوحشا كاللحظة التى تسبق الإجهاش بالبكاء .

وهل كانت هذه اللحظة مجرد لعبة يلعبها فريق « الشجعان » الخمسة ، ويستعدون لها بالإنتظار كل يوم ؟ إن واحداً منهم لم يقل ابدا للآخر أنه ينتظر الأطفال ، ومع ذلك كانوا يصعدون جميعا



درجات السلم عند الظهيرة ، وينتظرون فى صمت وهم يحدقون بتململ واضح فى ساحة الشارع التى تقع فى حيز رؤيتهم من موقعهم هذا . وكأنهم خجلون من البوح بهذا الأمر الصغير ، يتبادلون النظرات التى لا تستقر ، واذا استقرت يهرب منهم الواحد بعينيه وقد ظن أن زميله قد كشفه ويبادر بالتمويه : « على فكرة بيت خطيبتى قريب من هنا وهى بتمر من السكة دى » رغم معرفته أن زميله يعرف كونه أصبح بلا خطيبة وقد ارسلت اليه الخطيبة دبلتها عندما صدر قرار الاتهام ولاح حكم المؤبد ممكنا ، أو يقول واحد لأخر « يا أخى المنظر من هنا حلو جداً ومريح » رغم معرفتهم جميعا ان شيئاً لا يبين لهم الا قطعة من شريط أسفلت كالح ورصيفا يحده سور الاستاد الذى يخفى ما وراءه وكانوا واقفين بأعلى السلم منذ ثلاث ساعات وقد بدأت تمطر .

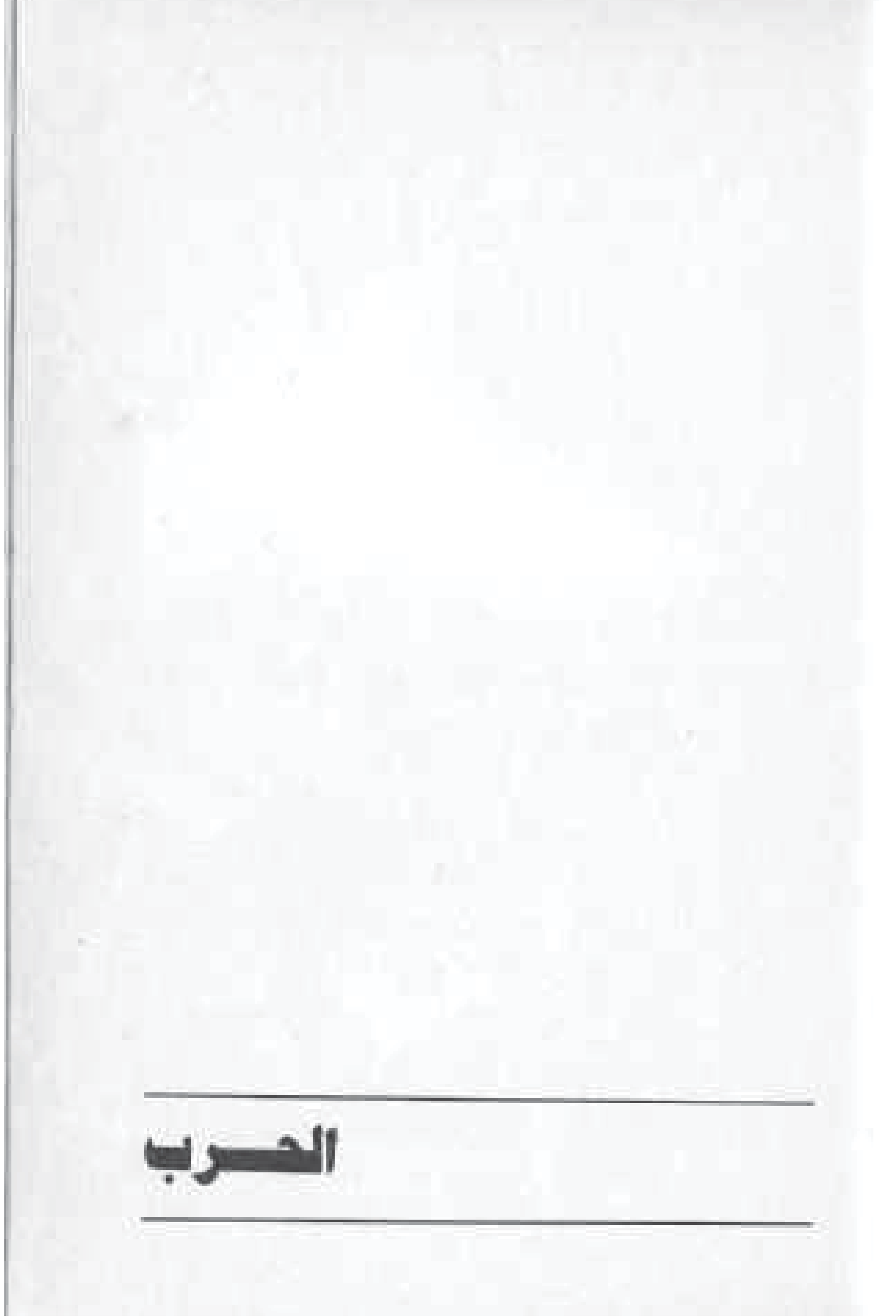
ثم أن المطر راح يشتد ، فرفعوا ياقاتستراتهم وكانت رؤوسهم تبتل ، ويسيل الماء على وجوههم ثم ينزل الى الصدور ، فيرتعشون ، ويقول أحدهم وهو يرتعش . . « يا أخى المطر ده شىء جميل » . ويؤمنون على قوله وهم يرتعشون : « فعلا . فعلا » . ثم عندما بدأت الريح فى توجيه المطر الى وجوههم وصدورهم مباشرة راحوا يتراجعون ويلتصقون بالحائط الذى يخرج منه السلم وينظرون مع ذلك بزوايا عيونهم التى لم تكن لتغفل أبداً رؤية قطعة الأسفلت التى يرقبونها منذ أكثر من ساعات ثلاث ، وقال أحدهم بعد أن نظر الى ساعته التى مسح عن زجاجها الماء وهو يتنهد : « ياه الساعة أربعة ومعاد التمام

قرّب » ، لكن آخر كان يستميت على التفاؤل وهو يتكلم بعصبية « لا لسّه عشر دقايق » . « قالونا لسه عشر دقايق » وتلعثم أحدهم وهو يتبس بحرص كأنه يخشى الانكشاف : « آ . أظن . أظن الناس برضه ما تخرّجش عيالها فى الشتا ده » وغمغموا بحزن مجيبون : « تقريبا . تقريبا »

ثم برز لهم المأمور يخرج من التكعيبة ويبدو شديد الانفعال وهو يصفق بغيظ ثم يشير اليهم بحدة ويتكلم كأنه يصرخ :

« يا اللا يا حضرات ع العنبر .. فسحتكم إنتهت والتمام ها يبدأ »

وراحوا يتلكأون وهم يهبطون ، ذاهبين الى العنبر .. يتلكأون كأنهم ينتزعون أقدامهم الملتصقة بحديد الدرجات ، انتزاعاً يؤلم .



الحرب

« تم . تم . تم . طم »

جاءت نسمة الصبح بإيقاع الطبلة .. سمعت أنا ، وسمع أبو الروس ، فسألته فرحا :

ـ حرب ؟

كان راقدا ببطنه على فرع عال فى شجرة « كوز اللبن » ، وكنت تحت الشجرة أجمع الأكواز التى يقطفها وأعبئها فى صفائح صغيرة صدئة . راح يزيح تكاثف الأوراق العريضة الخضراء أمامه ، ومن الثغرة التى فتحها نظر ، وأجاب :

ـ حرب .

عرفت أنه أطلّ على المنظر من فوق حيث رأى : العربة الصقيلة التى تحمل التابوت ، والجياد ، والرجال المشيعين ، وعيال ملجأ

الضبط فى ذيل الجنازة وقد انتظموا فى الطوابير الثلاثة وهم يرتدون البذلات الكحلية ذات الشرائط الساتان الحمراء على الجنبين . . خطواتهم منضبطة وهم يمسكون بآلات الموسيقى النحاسية ، يعزفون ، وعيونهم تتوتر . . تدور فى كل الاتجاهات وتستقر على الأجانب حيث تكون هناك عيون ترقبهم .

كنا ـ نحن عيال المسلمين الذين يسكنون حى المقابر القديمة ـ نقف هناك والجنازة تمر أمامنا ، أيادينا وراء ظهورنا ، والطوب يغفو فى خبء الأيادى ، ونعرف أنه معهم أيضا فى خبء جيوب السترات الكحلية وتجاويف الأبواق النحاس . وإذ يدخل الكبار التُرب حيث يبقى عيال الملجأ فى الخارج تنتهى لحظات الهدنة . .

تسكت الطبلة ، وتنكتم أبواق النحاس ، ونجأر جميعا بصيحة الحرب :

ـ « هـا اااااا . أهـا اااا »

تنطلق قذائف الطوب والظلط من فوهات مدافع الأيادى ، نتبادل الكر والفر ، وتختشى الأسر كما يختشونه ، ونعمد إلى الإغاظة كلما تعبت أيادينا :

ـ « كيريا كيريا يا ليـون
حنا وجرجس فى الكانون »

وهم مثلنا إلى الإغاظة يعمدون ، رداً ، أو تعباً :

ـ « شد العمة شد
تحت العمة قرد »

كنت أحب ذلك الثبارى الذى لم أتوقف أبدا ـ ولو للحظة ـ أمام دافعه ، وكان مكان هناك ـ كأنما ورثته يوم تعلمت الوقوف ـ عند الأجناب ، فسألت أبا الروس لو نذهب الى الحرب ونترك أكواز اللبن لوقت آخر ، لكنه رفض بطقطقة مستهزئة من فمه ، وأخفض رأسه الكبير الذى يشبه الشمامة ، وطرفت عيناه النقرتان ..

قال يكلمنى وأنا مدهوش :

ـ « بالك .. القبط يا خدوا كل حاجة معاهم الترية لما يموتوا »

لقد كنت أريد الذهاب الى « الحرب » وكفى ، هذا كل ما فى الأمر ، لكنه أشاح بوجهه وراح يتكلم عن أشياء غريبة ، فرددت عليه وأنا مغتاظ :

ـ كذب فى كذب .

انتفض ورمانى بأحد أكواز اللبن ليقع الكوز بطرفه المدبب على رأسى ، فرحت أفرغ الصفائح مسعورا وأقذفه .

عندما جاء أحد الأكواز فى دماغه ـ قرب العين ، رفّس وتكور وجعل يغرغر ويزوم ، ثم أخذ فى الزحف نازلا كقرد مغتاظ ، وكانت الشجرة (تتهزهز) تحته .

قدمت ساقا على ساق ، وشرعت يدى متحفزا ، ولا أذكر أن أحسست فجأة بألم فى بطنى ، وسمعت صوتى يصرخ ، ثم إن أبا الروس كان يدور مثل الغزال قبل أن يهوى وأنا معه ، وأذكر بعض التقلب فى التراب . وركبته بمشقة . ولم أعد راكبا وهو يزق ترابا تحتى ويقول :

ـ « انت ح تروح النار . . تحاسى للقبط تروح النار . »
تراخت يداى وقمت عنه . فعلدرنى برفسة فى ركبتى ولم أردها بعم أنه كان مسطوحا على ظهره ومكشوفا أمامى . كنت خائفا . تبثق أمام عينى صور متاججة لنار حمراء ، وسيخ حديدى محمى يحرقنى ، وأحد الزبانية يقلونى على النار . . أصرخ من ألم الحريق وما من مجيب غير صوت يرعد :
ـ « لاجل تبطل تحامى للقبط يا بن فاطمة . . لاجل تبطل تحامى للقبط »
كانت أمى تقول لى ، حتى أسمع كلامها وأطيع . . ، كانت تقول :
ـ « إسمع كلامى لاجل أتشفع لك . . دا كل واحد يوم القيامة ينادوه باسم أمه »
وظلت صورة النار تلبثنى بإرهاب . لكنى عندما انحنيت أجمع الأكواز التى تبعثرت ، جاءتنى الفكرة ، فزعقت بها فرحا :
ـ هاه يابو الروس يا ضلالى . . أنا اسمى محمد . . اسم محمد حبيب الله ما يعديش عالنار يا ضلالى .
لكنه أحبطنى فى دقيقتها . إذ مط شفتيه الغليظتين يصدر صوتا قبيحا ، ويقول باستهزاء :
ـ « هيء . . كلام عيال عيال يابوى . . يابوى . . تحامى للقبط ، تروح النار . . انشالله تكون الشيخ حسين ذات نفسه »
ماذا أفعل ؟ ! رققت الكلام لأبى الروس الذى تبدى شاهدا رهيبا على خطيئتى وقلت وقد عاودنى الخوف :
ـ اياك تكذب يابو الروس . . حرام عليك تدخلنى النار . . أنا

ما حاميتش للقبط ، انت بتكدب يابو الروس .. بتكدب انت .. »
وأقبل نحوى باسطا كفه اليمنى ليضعها فى كفى ، فصالبت ذراعى على صدرى بتردد .
اقتربت ببطء جاد ، ومد يده ، يقول بجدية :
ـ « عهد مين ده ؟ »
أعطيته يدى اليمنى ، ورددت :
ـ عهد الله .
أخذ يدى ، وأخذت أذرعنا تهتز على إيقاع ما ينطق :
ـ « وعهد الله .. وعهد الله .. وعهد الله أبو أربعة وأربعين يمين .. أقول الحق .. إلى شفت حسن ابن بائعه النسوده .. ومعاه صليب دهب فى دهب .. جايبه من ترب القبط »
انفصلت أكفنا عندما سكت ، ولم أجد لدى ما أقوله . وكانت صيحات الحرب تتناهى إلينا من بعيد لكننا مضينا نحمل بضاعتنا ـ العلب الصفيح وبها أكواز اللبن ـ نقصد شارع العطارين ، لنبيع للنسوة الحبالى : الصفيحة بقرش .
كنا نسمع أنهن يأخذن الثمرات الخضراء التى تشبه أقماع البامية ، يكسرنها على بطونهن المنتفخة ، فيسيل السائل الحليبى من بين شقوق الثمرات المكسرة على استدارات البطون .. وعند الولادة ، يضعن عيالا بيضا خضر العيون بفعل سحر يكمن فى هذه الأكواز .
هكذا كنا نسمع ، كنا نسمع هكذا . وكان أبو الروس يهم بالكلام فجأة ثم يتوقف .

٢

بعنا بضاعتنا كلها للنوة الخيالى فى شارع العطارين ، وبعشرة قروش كاملة . .

اقتسمنا القروش بالتساوى فى البداية ، لكن أبا الروس غالطنى بعد ذلك ، وأغار على قرش من قروشى . اشترينا ترمساً ، وحمصا ، وشقق فول بالدقة الحمرا ، وعلبة بالسمسم ، ثم أخذنا نتسكع . .

مررنا بكل السينمات ، وأمام سينما « ركس » توقفنا طويلا . . على الواجهة بهرتنا صورة « الشجيع » يركب حصاناً ، ويمسك بمسدس لامع ، وحول وسطه حزام « رصاص فى رصاص » . تمنينا أن ندخل لنرى « الشجيع » وهو يطارد العصابة ، ويرديها واحداً وراء واحد بمسدسه ، ولم تكن قروشنا لتكفى . . كان الباقى معنا نحن الاثنين قرشا واحدا .

وشوشنى أبو الروس بكلام كثير كثير ، وكنت مبهوتا ، وشعرت بأذنى رخوتين ، واتفقنا أن نتقابل بالليل ، ونذهب الى « ترب القبط » .

أخذ يطن فى رأسى السؤال : هل الشجيع الذى نحبه مسلم أم قبطى ، وكنت خائفا لو أسأل أبا الروس فيفزعنى من جديد . . وفى الطريق . . اشترينا بالقرش . . شمعة ! .

٣

فى بيتنا عندما نبشت الكراكيب التى تحت السرير ، وجدت عتلة حديدية مطعوجة وسنجة ميزان .

خبأت العتلة فى رجل بنطلونى ، ولففت السنجة فى ورقة ، ووقفت على السطح أنتظر ، حتى نزل الليل . كنت جزعا ، ومُثارا ، ورأيت السماء السوداء شديدة البعد ومجوفة ، وكانت النجوم تبضّ خلالها وتأخذ فى الارتعاش ، فأخذت أحاول عدها .

ـ « فيست . فيست . فيست . »

هكذا جاءتنى الإشارة : صفارته الرفيعة الملحوسة . . عندما سمعتها خطوت بحذر الى حافة السطح ، ونظرت الى أسفل . كان هناك فى الوسعاية أمام البيوت ملتفا بالظلمة ، ولم أميزه إلا بشبح رأسه الكبير يتأرجح على قامته الربعة المدكوكة .

أعطيته الاشارة أنا الآخر :

ـ فيست . فيست . فيست .

ونزلت اليه . . .

كانت الشمعة معه ، ومعه علبة كبريت جلبها من بيتهم ، ورأيت على كتفه جوالا مطويا . . عندما سألته عنه ، تحسسه بهدوء ، ومال على أذنى يهمس :

ـ وح تحلاه دهب .. دهب ق دهب . من ترب القبط »
خلفنا البيوت وراء ظهرينا ونحن نجتاز الوسعاية ، دون صوت .. الى الترب .
كنت أتلفت ورائى ، وكل نظرة الى شباك به ضوء كانت تساوى هدهدة قطعة من ارتياب ، ق وشيش مُلغز ، وظلمة تحلق بمجاهيل مرعبة ، ونحن نتوغل ... ونحن نتوغل .

٤

درنا ق الطريق حول تربنا : جبانة المسلمين ، وق العتمة شفت الترب الصغيرة بحدباتها المقصومة الظهور وشواهدها الناتئة .. ، شفتها جمالا ممسوخة ساكنة .. حيث الحدبات سناما كانت ، وكانت الشواهد رقابا ورؤسا تحجرت . وشفت المداقن الكبيرة شياطين ضخاما تعتلى الجمال الممسوخة ، والكافور والنخل المتمايل حولها شفته جنيات ترقص مثنية لتبهج الشياطين .
وق كل لحظة ، ق كل لحظة ، كنت أتلفت مذعورا لأقل صوت يصدر ، حاسبا أن عفريتا سيطلع من بين القبور ويخطفنى من ظهرى ، فتسرع قدماى ، تسرع ، وأتعثر ، وأقترب من أبى الروس ألمسه لعله يؤنسنى ، لكنه يمعن ق تخويفى رغم خوفه هو الآخر وارتعاشه .. كان يقهقه بافتعال ، ويصرخ منشدا :

« يا عفريت إطلع لنا

شدنا من شعرنا »

وكان أبو الروس خائفا ، ويرتعش هو الآخر ، وإن أنكر .

٥

وصلنا إلى سور « ترب القبط » . .

توقفنا نلهث متواجهين ، ونترامق بصعوبة فى العتمة ، ثم توشوشنا ، وبدأنا نتسلق . . رفعته أولا على كتفى وكان ثقيلا كحجر ، ثم أخذت أدفعه من مؤخرته وعقبيه وهو يتسلق ، حتى أصبح فوق السور . نام ببطنه على السور ، وانثنى يمد ذراعه لى ، فصعدت بتعثر حتى لامست يدى يده ، وشدنى .

ومن فوق السور ، هبطنا إلى الداخل . . .

عندما استقرت قدماى على الأرض حل الاستغراب بمكان الفزع الذى اعترانى منذ اتفقنا أمام سينما « ركس » . والذى كنت أعد له ضربات قلبى لتسرع مقدما .

استغربت ! .

كنت أتخيل « ترب القبط » جنينة واسعة تقوم فيها بنايات عالية من رخام ، يحوطها شجر ونخل وورد ! .

ربما استقرت هذه الصورة فى ذهنى بعد رؤيتى المتكررة لجنازات القبط ، التى تختلف عن « المشهد » الذى نشيع به نحن المسلمين موتانا . . حيث بدلا من « الخشبة » المحمولة على الأكتاف ،

يكون صندوقا من الخشب الملمّع تحمله سيارة سوداء منقوشة بالذهبي وعند كل ركن من أركان سقفها يقبع نحت لملاك ذهبي طائر بجناحين مذهبين أيضا .

استغرقت مستغربا وأنا أطوف بعيني ترب القبط . . رأيتها ، تماما ، مثل تربنا نحن المسلمين . . تماما ، رأيتها : مدافن كبيرة قليلة تشمخ ، وسط ركام الترب الواطئة . . لا فرق غير أن الشواهد تقوم بدلها الصلبان ، وحتى الصلبان : إما كبيرة مزخرفة وبعضها منوّر فوق المدافن الكبيرة ، أو صغيرة حالكة أكثرها مكسّر فوق الترب الصغيرة التى ليس حولها شجر ولا نخل ولا ورد . . بل تماما مثل ترب المسلمين الصغيرة ، ولصقها ، رأيت ذات الفسائل لنبات الصبار الداكن المغبر تلوح نابتة فى العتمة .

ـ « يا الله يله . . احنا مش جايين هنا علشان نقف نبرق لبعض »

قالها ، (وزعقنى) أبو الروس ، فارتجفت ، وسرت أتبعه ، وهو يقودنى ، ونجوس .

٦

توقفنا أمام مدفن كبير ، كان عاليا وجدرانه باردة وناعمة وله باب حديدى مصفح بقضبان من النيكل

أخذ أبو الروس يحاول ادارة الأكرة الكبيرة التي تبرق ، لكن يديه كانتا تنزلقان . .

حاولت أنا ، فلم أفلح . .

حاول أبو الروس فتح الباب بالعتلة ، ولم يستطع

وحاولنا بالعتلة معا ، ويئسنا .

جربنا مع أبواب مدافن كبيرة أخرى ، لكنها جميعا كانت موصدة باحكام ، وأكراتها تبرق وتنزلق عليها أيادينا ، وفي فرجاتها الدقيقة كانت عتلتنا الحديدية المبططة تُشل .

كانت العتلة تسقط منا على عتبات المدافن الكبيرة ، فتصدر رنينا . . ، مخوفا يترجّع خلفه صدى رائق ، فخم ، يرعب ، يأتي من داخل مبطن بالنحاس والرخام .

بدأ الخوف يغرقني ، فانحنيت أهمس بتوسل في أذن أبي الروس :

ـ يا الله نرجع ياعم . . أنا مش عايز دهب ولا نيلة .

لكنه كأنما لم يسمع ، ساقني نحو الترب الصغيرة ، وعندها قرفص . . ، قرفص وراح يزحف على أربع ويتحسس الفوهات المسدودة .

توقف فجأة عن الزحف ، وزعق يناديني :

ـ « تعاله يله . . دي طرية . . نقدر نفتحها » .

كنت خائفا مما يحدث ، وخائفا أكثر لو أبدو جبانا لأبي الروس فيفضحني عند « عيال الحتة » فأخذت أناوله ما يطلب وقد سيطر عليّ .

- « العتلة والسنجة ياله » .

وناولته العتلة والسنجة ، فأخذ ينقب الفوهة المسدودة .

- « شيل بضوافرك ياله » .

وأخذت أخمش بأظافرى كتلة من أسمنت ما زال مبتلا ، يتهايل ، ويتكوم على الأرض .

- « زيح ده ياله » .

وأزحت كومة الأسمنت الصغيرة .

أخذ أبو الروس يضرب برأس العتلة ، فسقط قالبا طوب فى الداخل ، وتكونت فتحة مظلمة أخذ يوسعها . . . « يوسع ، يوسع ، يوسع ، ثم زحف ودخل .

نشف عرودى ، وتثلجت وأنا أتابعه يختفى داخل التربة الصغيرة .

- « ولع الشمعة وتعال ياله » .

أشعلت عود (كبريت) ، انطفأ بفعل إرتعاشى ، وعوداً ثانيا ، وثالثا ، واشتعلت الشمعة . وعلى ضوء قطعة اللهب الصغيرة ، رأيت الأرض الطينية زلقة كأنما ينشع أديم من ماتوا ، ورأيت الضبار الداكن المعفر ، ولقمة مهروسة يجرها النمل نحو ثقب فى جدار التربة . زحفت ، ودخلت كأنما شىء غير نفسى يجرلى .

كان سقف التربة يلمس الرأس ، واطئا ، ومقبّبًا ، وبنيا بجفاء ، تبط بين أجزائه المتآكلة كتل غليظة من المونة .

وكان أبو الروس جالسا على ركبتيه ، واضعا يديه على ظهر تابوت خشبى منفسخ الألواح ، ودهانه الأسود كان مقشورا وكالحاً .

ـ « هات العتلة ياله » .
وبيد مرتعشة ناولت العتلة لأبي الروس .
ـ « بابا ! ! » . »
صرخت بلا شعور ، اذ . . في قعر التابوت رأيت جثة حديثة لرجل نحيف ، في قميص من الدمور وبنطلون رمادى قديم من قماش « جبردين العسكرى » . . قميص عليه بقع « بوية » . . قميص نقاش ، وبنطلون نقاش واسع وثنية الرجل كانت مفرودة لتطول .
وجه الرجل كان شاحبا بزرقة ، ولحيته نصف محلوقة ينبت فيها شعر أشيب . . كان مغمضا عينيه في تعاسة ويبدا لى زعلان ، وبقلبه حسرة .
عندما رفع أبو الروس يدى الرجل يبحث عن « الخواتم الذهب » ، رأيت يد الرجل عريانة ومعظمة وأطراف الأصابع مكلومة ، وحول الأظافر كانت رواسب الجير تتوغل داخله في الجلد المتهرىء .
فتش أبو الروس في جيوب الرجل ، وكانت خالية ، فغمغم ، وأخذ يحرقنى بنظرة مخلولة ، ثم لطمنى . . لطمنى وهو يصرف على أسنانه ، ويقول :
ـ « وشك نحس ياله » .
وكأنما كنت في انتظار اللطمة . .
التقطت العتلة ، وضربته بها على بوزه فانفجر دماً غامقا ، وطرت أهرب . . خرجت من التربة ، وقطعت « ترب القبط » ، وقفزت السور ، ثم « ترب المسلمين » ، والوسعاية . . .

كأنما كل هذا فى غمضة عين . . . غمضة عين كنت أسمع خلالها دبيب قدمى أبى الروس يلحقنى .

٧

وصلت إلى بيتنا ، ودخلت ، ثم رددت الباب بظهرى حتى لا يفتحه . .

وأخذ بدنى الصغير ، يومها ، يذوب بلوعة ، فى موجة من بكاء حارق . . لم أكن أعرف كنهه .

والأمر الغريب أنه كلما كان يعلو بى موج البكاء ، كنت لا أكره أبا الروس ، بل أشتاق الى أبى لو يأتى حالا لأتعلق برقبته . . ألصق خدى بذقنه الخشنة ، ولا أتركه أبدا يغيب .

الموت يضحك

بووم م م . . . . وبدا أن شيئاً ما قد انفجر . أو على الأقل قلبت القطط صفيحة القمامة وتجسم الصوت في هدأة منتصف الليل . وكان حسين هو اليقظان الوحيد يقرأ مطلاً برأسه ويديه من تحت اللحاف القديم الملتمع الحواف بالسواد . كان البرد شديداً بين جدران البيت شبه العارية وأرضية البلاط المتحجر والسقف متساقط الطلاء . كانت مثانة حسين توجعه ومع ذلك يؤجل الذهاب إلى دورة المياه دائماً إلى اللحظة التالية . وقرر أنه عندما يذهب إلى الدورة سيرى ماذا حدث وسيعدل صفيحة القمامة ويطرد القطط ثم يغلق باب الشقة . لكن صوت أمه أتى من الحجرة المجاورة : « يا مصطفى إيه اللي وقع يا مصطفى ؟ » .. كانت تنادى أخاه الأصغر . ليتأكد مرة

أخرى ، بعد مئات المرات ، أن هذه المرأة النحيفة القلقة لا تنعس أبداً . أو على الأقل تسمع كل شىء وهى نائمة . وعاجل بالرد حتى يعيدها إلى نومها الخفيف : « مفيش حاجة يا امه . دى القطط . نامى . نامى » لكنه وهو يردد هذه الكلمات شعر بشكل غامض أن الصوت كان أضخم من صوت صفيحة قمامة توقعها القطط فى منتصف الليل . وكانت مثانته قد بدأت تؤلمه من جديد ، بعد أن استراحت متمددة لتأخذ أقصى سعة لها . فقرر دفعة واحدة أن ينهض لينهى كل شىء . هذا الألم ، ويرى كيف أحدثت صفيحة القمامة كل هذا الدوى . .

نفض عنه دفء اللحاف ، ومتقلصاً وثب على البلاط البارد ثم أسرع على أطراف أصابع قدميه وكعبيه الملسوعين بالبرد يلتقط شيئاً ينتعله ، ومقفقفاً فتح باب الحجرة . . رأى الظلمة فى الصالة ثم أحس بتغيير ما فى النور القادم من جهة الحمام والمطبخ . فى البداية شعر بشىء يضايق أنفاسه ثم تيقن من أن النور القادم من جهة الحمام والمطبخ مثقل بالغبار . خطا بحرص غريزى وفى حلق طرقة الحمام والمطبخ لم يتمكن من رؤية شىء . كان المكان يعبق بالتراب . كأن قنبلة سقطت عليه لتوها وأثارت كل هذا التراب الذى كان يدوم ببطء فى فراغ المكان الصغير بين الجدران التى بدت أقدم من أن تكون هى جدران بيتهم الذى يعرفه . ثم وكأنه يعتاد الرؤية فى قلب زوبعة التراب ، مثلما يعتاد المرء شيئاً فشيئاً الإبصار فى الظلمة ، رأى كومة الأنقاض على بعد خطوة من قدميه ورفع وجهه ببطء ،

بحسرة ذاهلة كمن يتأكد من شىء مخيف يوقن فى وجوده ، وأبصر حديد سقف المكان عارياً وصدئاً ، وممزقاً كشبكة من خيوط واهية خلفها سماء الليل . . رأى السواد الرمادى لليل الشتاء المطل بلا نجوم من سقف الحمام والطرقة والمطبخ . وأيقن أن البيت كله سينهار الآن . واستغرب هذا الهدوء الخامد الذى يثقل جسمه ويجعله يتراجع بطيئاً بظهره نحو الصالة . . خطوة خطوة ، ومع كل خطوة يتلمس برد الحيطان بقربه والأشياء . وبإرادة غريزية يوقد الأنوار وهو يتراجع . نور الطرقة . نور الصالة الصغير . نور الصالة الكبير . وكان الغبار يستبين الآن وقد ملأ البيت كله . وبمرح لاإرادى مفاجئ ، وجد نفسه يصفق وينادى : « اصحوا يا حلوين . الموت وصل »

* *

وقفوا جميعاً فى الصالة بأقدام عارية ، أو بقدم عارية وأخرى وجدت ما تلتقطه فى طريقها المرتبك . دعكوا عيونهم من شدة تهييج الغبار للجفون فى البداية وعطسوا وتحشرجوا مرات . ثم بدأوا يعتادون التنفس فى هذا الوضع بينما كان التراب نفسه يخمد ويتضح كل شىء . فى أول الأمر استيقظ مصطفى بعيونه المستغربة المفزوعة وفمه الذى يصنع علامة استفهام تثير الروع قبل أن تدركها أية إجابة . ثم جاءت من ظلام غرفة الواجهة عفاف بقميص نومها ومنديل الرأس . ثم استيقظت الأم المروعة دائماً ، والتى كانت تسمع لسنين طويلة صوت الخطر المنذر فى

الجدران والسقف يتمطى بطقطقات خافتة لا يستقبلها إلا جهاز عصبي شديد التوتر مثل جهازها . وفي النهاية أخذ الأب العجوز يبرز بطيئاً من ظلمة غرفته الصغيرة . محنياً ويابساً ويجرجر نصفه المشلول بتعثر . وبدا حسين كالمايسترو بينهم . كأنه يستخرج منهم نغمة خفية ومباغتة للطقس مع ذلك . وبشكل مثلي لم يكن هو نفسه يظن أنه مهيأ له . وكان مصطفى أول من استجاب . .

فما أن برز بطرحه المفرح لمن يراه حتى بادره حسين : « إيه يا . . . البيت بيقع . بيتنا بيقع . فيها أيه دي ؟ » . وكانت عفاف بمرحها الفطري مهيأة لتلقي الإشارة حتى قبل صدورها ، قالت بصوتها الفضي الخفيض والمسموع مع ذلك : « الله . . . ودا كلام يا بيتنا ؟ ودا وقته ؟ ورانا امتحانات يا أخي . وعايزين نام » . الأم وحدها هي التي بدت أكثر ترويعاً لكنها مالبثت أن بدأت في الابتسام رغم رعبها الذي لم يتلاش . أما الأب فقد كان في تفكك الشيخوخة المبكرة السهل جاهزاً على الفور للاستجابة للمثير . . أخذ يضحك ضحكاً تصلب شرايين المخ المرتج هذا ، الذي يبدو كأنه لا يقاوم . كأنه طفل عجوز يدغدغه شخص ما لايبين . أخذ يضحك وحسين يقوده في هذه اللحظة . . يسلم عليه الآن بجدية ضاحكة واهية مضحكة الخطورة : « سلامو عليكم يا معلم . خلينا نشوفك هناك . هناك شباب طبعاً . شباب على طول » . ونسمع صوت عفاف وهي تقلب القاف كافاً وتغني : « إلى اللكاء . يا أصدكائي » . . وبدوا رغم عددهم القليل كأنهم زحام من البشر في الصالة

العابقة بالغبار إذ كانوا فى حراك دائب وصخب وجلبة . كانوا حسبتهم يتبادلون السلام والتوديع ويعودون إلى ذلك من جديد. كأنهم يشغلون فى حلبة ما : سلامو عليكم يا أمه . ابقى حبى علبة الملوخية الناشفة معاكى وكام عقد بامية » . « حاجه يبلاش كده » . « المعلم يسبقنا على جنة الخلد طبعاً واحنا نحصله » . « ما تعيش علينا » . وكانت جلبتهم تعلو ، تعلو حتى أنهم فجأة سكتوا .

* *

وجعوا لبضع دقائق . . بضع دقائق فى آخر الليل ، وفى نور الصالة الغامر ، سمعوا فيها كل شىء ورأوا . . سمعوا طقطقة الجدران مع مرور اللوريات ذات المقطورات فى الشارع العمومى ، واحسوا بالرجة . . كأن البيت يعوم فعلاً فى بركة من المياه الجوفية أو مياه المجارى . رأوا تشرخ السقف مربعات ومستطيلات واسعة يرسمها صدأ الحديد فى بياض المصيص المتقادم المصفر . كل السقف . . فى الغرف الست التى كانت ثلاثاً قسمت بجدران ربع طوبة لتحمل السقف المنذر بالانهيار منذ عشر سنوات خلت ، لكنه الآن يبدأ الانهيار بالفعل . فعلها فى الحمام والمطبخ منذ لحظات والبقية تأتى . وقد تكون دفعة واحدة ، حيث لا إمكانية لديهم ، أصغر إمكانية ، لمجرد ترميمه . . قالت الأم : « ننزل الشارع يا أولاد » . ولابد أنهم تخيلوا منظرهم فى الشارع . . عشة من الملاءات والبطاطين

القديمة لصق سور الجراج العمومى ... الحلل والبوتاجاز والثلاجة أمام الباب . والكتب فوق الثلاجة . والملابس على مشاجب من مسامير يدقونها فى الحائط بجانبهم . كانت عفاف قد ذهبت وفتحت باب البلكونة ولفعتهم هبة من البرد عرفوا منها صقيع الشارع قبل أن تأتى عفاف وتفتتح الضحك من جديد : « حاجة الاسكا خالص . حاجة آخر الاسكا . وتشق كمان » . ودخل مصطفى فى خط الضحك : « ايه الهنا اللى احنا فيه ده ؟ » . وكأنما أيقظت كلمة « الهنا » كوامن نفس الأم مزمنة الحزن فانفجرت تبكى . وراحوا يمطرونها بمحاولات الاضحاك : « أية يا حاجة . صعبان عليكى تسيبى كتاكيتك » .

وجرى مصطفى بساقيه الطويلتين واحضر صندوق الكتاكيت من السور الجوانى مرددا « والله ما يحصل . والله ما يحصل » . وانحنى حسين على الصندوق المغطى بخرقة قديمة حيث وضعه مصطفى على كنبة الصالة ، وكانت الكتاكيت تصوصو بتارع مروعة من بغتة ايقاظها فجأة . وقال حسين سامعة ؟ بتقول : « سوا . سوا . سوا . سوا » . وأرفت عفاف بخطابية مضحكة وهى تشد قرطتها على جبينها حتى العينين « وفاء . يا للوفاء . وفاء الحيوان يا بنى آدم » . وبدا للحظة أن وجه الأب يتلون مع ايقاع الكلام . يضحك عندما يرى ويسمع الضحك وينمحى ضحكه عندما يرى الوجوم . بات هامشياً إلى حد موجع بعد أن استيقظ من غيبوبة جلطة المخ المفاجئة ، منذ سنوات . انزوى ساكناً وانزوت معه كفاية البيت . وها هو البيت يرتج مع مرور

اللوريات الثقيلة في الشارع العمومي . كانت المياه تهتز في الدورق الزجاجي الموضوع على طرابيزة الصالة ، ولاحظت الأم ذلك بانقباض وهي توشك على البكاء : « هانموت يا أولاد . دي الميه بتتهز كأن حد بيرجها » . لكن حسين عاد يمسك بخيط الضحك وهو يميل على الدورق ، ويلمس فوهته ناظراً إلى الماء المرتج فيه كأنه يكلمه : « هز يا وز جناحك هز . احنا اتنين عايشين في العز » . لكن عفاف عقبت بتحفظ كاتم للضحك : « احنا خمسة يا أستاذ من فضلك . خمسة في عين اللي ما يصلي على النبي آه خمسة » . ومس الرقم سطح ذاكرة الأب الواهنة ، ذاكرة تصلب الشرايين المبكر ، وقال بحماس من عثر على كنز « خمسة . احنا خمسة . نروح كلنا كده من طلعة النهار للمحافظ يشوف لنا حل » وصاح مصطفى بصوته الذي لا يعرف النغمة المطلوبة أحياناً ويبدو أعلى مما يجب « معلم . لم . والله معلم تدبل الورقة وتفضل رحتها فيها صحيح . أيوه نروح كلنا كده بربطة المعلم للمحافظ من طلعة النهار . دا إذا طلع علينا النهار » وقالت عفاف « طابور . نروح طابور » . وأضاف حسين لمسته الأخيرة : « ونقول له احنا ما تنفعناش شقة المساكن الشعبية اللي متقدمين عليها من عشر سنين . احنا عايزين فيللا في الهرم . أو طريق المعادي من فضلك »

* *

كان الليل يمضي ببطء شديد ، ثقيل السواد ، عندما أووا إلى أسرتهم أخيراً . . ومع ذلك لم يفلح النوم في التسلل إلى مخادعهم

اليابسة » . المراتب القديمة المهروسة تحت جنوبهم تكاد تصل أضلاعهم بألواح الأسرّة الخشبية المتباعدة . والوسائد تصلبت من بعاد التنجيد عشر سنين خلت . تركوا نور الحمام وحده ، ومع العتمة لم يناموا .. برز صوت مصطفى المرتفع أولاً ، آتياً من نصف غرفته قرب المدخل : « اللقا يوم اللقا يا حلوين » . وردت عفاف : « كل واحد يبعث عنوانه للتانى لما يوصل » .

واخذوا يتحادثون بأصوات مرتفعة من مراقدهم ، وعبر الظلام الذى يرمده غبار السقف المنهار . ثم إنهم بدأوا يتوادعون : « سلامو عليكم نتى » ـ قال مصطفى ، وردت عفاف : « باى باى » وقال حسين : « نشوفكم بخير هناك » . وبدا أن البيت يسكن سكونه المريب قبيل الانهيار . أحس حسين بأن سقف الغرفة سينهار عليه . وشعر بارتباك المرعوب الذى يسدد إليه أحدهم فوهة بندقية معمرة باتجاه عينيه . وجد نفسه يغمض ويسرع بشد اللحاف على وجهه متفكراً فى أن السقف عندما ينهار سيدخل التراب والرمل فى عينيه وحلقه . وربما أصابت كتلة خرسانية رأسه أو هذه المنطقة الحساسة من جسده ، حيث يمكن أن يعيش مشلولاً أو عاجزاً . تكور على نفسه نائماً على الجنب تحت الغطاء مفضلا الموت الكامل بالاختناق عن الحياة بعاهة مستديمة . وفكر فى الآخرين .. لماذا لا ينقل إليهم فكرته هذه ؟ وخرج برأسه من تحت الغطاء ، ونادى : « كل واحد يغطى نفسه كويس علشان يمطس على طول بدل ما تطول معاه وماتبقاش ظريفة » . وأتى صوت عفاف مقلداً صوت الطفل فى

ذلك الاعلان التليفزيونى : « كتشب أقوطا » . واشتد صوت مصطفى الذى أطلقه فى شكل زمارة : « وأنا كمااااان » . وتعالى صوت الضحك مرة أخرى ، لكن العجوزين لم يبد لهما صوت .. أى صوت فى هذه الجلبة ؟!

* *

كان حسين يحمل صندوق الكتاكيت ويتجه به فى أثر الضوء الخفيف المعتم إلى حجرة الأم إذ ظل يجافيه النوم ، ونور الصبح يتثاقل ولا يجىء . وهو يوقن فى كونها لم تنم ، وإنما ملتمة على نفسها تبكى كاتمة صوت البكاء . يكافؤها هذا الخارق والمخرق لمن يسمعه أو يراه . سيقول لها مضاحكا : « خدى يا ستى كتاكيتك . مش عايزين يناموا ويقولوا إلا نروح معاها » . لكنه فى النور الخفيف وجد سريرها خاليا . وفى حجرة الأب كان سريره خاليا أيضا . كاد حسين يزعق مناديا مصطفى وعفاف « العواجيز سابونا وهربوا ياعيال » . لكنه وجد نفسه يقرفص وينظر بتوجس تحت حافة الملاءة المسدلة على السرير القديم العالى . وبانذهاش لا يصدق وخجل وارتباك مهض وتراجع فى نفس الوقت حتى كاد أن يتعثر ويوقع صندوق الكتاكيت التى تعالت صوصواتها من رجة العثرة . وكانت الخرقة قد انزلقت عن فوهة الصندوق وبان حراك الكائنات الصغيرة ليمونية اللون تشعى مضطربة فى رجة الصندوق المعتم . فمال عليها يهس : س . س . س . سكوووت . عيب كداه » . لكنه فوجىء

بصوت عطاف مستيقظة : « بتكلم مين عندك يا أبيه ؟ » . « سأكلم الكتاكيت يا بنت » . وجاء صوت مصطفى : « آه الكتاكيت . صحيح كتاكيت . ربنا يديك الصحة يا عم » . وفي هذه المرة بدا ، وكأنهم يكتمون صوت الضحك

سائقة « ترولى »

لأن عينيه كانتا سوداوين وواسعتين كما يليق بعيون عربية ، فإن الدهشة فيهما كانت مدهشة وظريفة . وهي لم تكن مجرد سواقة ترولل . ترولل عادي . بل ترولل كبير بعربتين مفصلتين . ومائة وعشرين مقعداً . وستة أبواب مؤتمتة . وعشرات العدادات في لوحة القيادة أمامها . وميكروفون كانت ترفعه بيسراها من فوق مشجب بجانبها . وتذيع عند فتح الأبواب :

« انتبهوا . الأبواب الآن تُفتح . هذه محطة كذا » . وعند غلقها : « احترسوا . الأبواب الآن تُغلق . المحطة القادمة .. كذا » . وكان صوتها لطيفاً حسبه في أول الأمر مُسجّلاً ويُذاع بطريقة أوتوماتيكية مع التحرك والوقفات . وظل يحسبه كذلك حتى بعد أن عرف - لدهشته الكبرى - بوجود نساء يسقن

الترولليات فى هذا العالم .. لكنه أبصرهن من قبل نساء كالرجال .. أسطوات من نوع آخر : جسيمات وخشنات ولاشئ يذكر بأنوثتهن غير حقائب اليد النسائية التى يضعنها فوق « التابلوه » أو يعلقنها بجانبهن فى كتف « كرسى السواق » ، ويلتقطنها فى أذرعهن الثقيلة - كما تفعل الإناث - وهن يهبطن عند المحطات الأخيرة .

وظل يحسب صوتها اللطيف مسجلاً وهو لايتبينها من مقعده وسط المقاعد ، وهى وراء حاجز السواق الحاجب للرؤية رغم كونه من الزجاج . زجاج « الفيميه » الغامق اللامع الذى تطوحت عبره مرة يد وردية بيضاء . يد انثوية رقيقة الأصابع ومزوقة بطلاء أظافر برتقالى وسوار تهتز فى محيطه قلوب ذهبية متمنمة . لمح اهتزازاتها الخاطفة ، فانخطف ، وما أن خلا المقعد الأول فى اليمين حتى أسرع يحتله . وأسرعت تحتل مرايا عينيه المدهشتين المدهشة صورة سواقة ترولليل صغيرة حلوة ، تسوق « ترولليا » كثيراً عبر شوارع كثيرة تتوالى تقاطعاتها ، تتوالى الإشارات ، وتتوالى المحطات . لكنه ينسى هذه المرة أن يهبط فى محطته المعتادة . وهى تنسى أن تظل ناظرة أمامها إلى الدنيا عبر الزجاج الواسع العريض كما ينبغى ، وتتناسى أن تنبهه إلى كون المقعد الذى يحتله واحداً من مقاعد كبار السن ومصطحبى الأطفال ، وتلتفت إلى الخلف مرات خاطفة . تخطف بسماوية عينيها حدائق الزرقة دهشة مدهشة وطريفة فى عينين سوداوين واسعتين مثلما يحكى عن عيون عربية .

ولأن الصدفة لا تأتى فى الغالب صدفة ، فإنهما وجدا نفسيهما بعيران نفس الغابة الصغيرة فى قلب المدينة عدة مرات . فى صمت أول لا يخدشه إلا صوت اقدامهما تزقزق فوق الثلج . الثلج الأبيض يغطى بنصاعته أرض الغابة وتظل تخترقه جذوع أشجار الحور السوداء والبتولا الكلكية المنقطة . . آلاف الأشجار العارية أغصانها من الأوراق واقفة فى بياض الثلج ، وهما بين الأشجار يتوقفان . ينطلق فوق هامات الشجر العارى وعلى صفحة السماء سرب حمام بدا بنفسجياً ، ثم سرب غربان قطيفية السواد تعقعق ، ولم تكن أصواتها العجيبة الحمقاء هى التى اضحكته فى لحظة لايجوز فيها الضحك . لقد ظلت عبارة ، أنا الآن مع أسطى سواق ترولل ، تترجع فى داخله فيغالبه الضحك . يحاول كبته لكن يغلبه الضحك . فتذعر . . تتسع عيناها الزرقاوان ، وتتسع خطواتها وهى تتراجع مبتعدة عنه لتردد ، كاذب . كاذب . كاذب ، ثم استدارت تجرى . هى تجرى وهو يلاحقها بندءاته . . تقع النداءات على الثلج ويعيق قدميه الثلج . لكن الثلج ينبسط لقدميها ، فيتوقف . . يرقب فرارها الباكى بأسف . وتطعنه حسرة أنه ربما يكون قد أضاع غزالة . غزالة ثلج كان يبقى من خلفها وهى تفر أمامه فى البياض مبتعدة . فهل يستسلم لفقدان غزالة على هذا النحو؟!

الترولل تضطرب حركته . . كان يفقد شيئاً من نعومة سيره ، ونعومة الدوران والوقفات . بدا عصبياً وأخذ الركاب يتطلعون بذعر إلى الأمام نحو السائقة التى توقفت بغتة . برزت من وراء

حاجز الزجاج القائم الملتمع . واتجهت إلى الراكب الذى اعتادوه من قبل يجلس فى المقعد الأول عند اليمين . بيدها الوردية الصغيرة أخذت تلوح أمام عينيه السوداوين المتعبين بدهشة أخرى . دهشة مأخوذة بالحدة التى فى التلويح ، والحدة التى فى الأمر تصرخ به فى وجهه : « عُد إلى الخلف الآن أيها السيد . من فضلك عد إلى الخلف » . وكأن لطمة الصفقة بمناطيس قوته مائة وعشرين صوتاً راحت تجذبه إلى الخلف مرددة : « عد إلى الخلف أيها السيد . عد إلى الخلف . عد إلى الخلف .

وكان آخر الركاب الذين يهبطون فى المحطة الأخيرة . تلكأ لحظة قرب مقعدها واستدار ، ومال عليها يهمس سائلاً : « هل سأظل فى الخلف طويلاً ليمضى كل شىء على ما يرام ؟ » لكنها لم ترد ، ولم ترده . .

هل هى آخر تحية للورد ؟

ومع أول خطواته داخل ردهات المعهد الرخامية الصقيلة التى عاشرها طويلاً أحس بأن شيئا ما قد تغير ، وأنه لسبب لا يدريه صار فى قلب التغير . فماذا حدث خلال أيام ؟ وماذا حدث منه لينظروا اليه هكذا ؟ لقد كانت اجازة أول مايو طويلة نسبياً إذ وافق أول مايو يوم خميس ، ثم جاء الجمعة ليكون ثانى أيام العيد ، ومن بعد اليومين جاء السبت والأحد وهما يوما العطلة الأسبوعية المعتادة . أربعة أيام ، لم يحس بتغير ما خلالها . . فى حياته ولا فى حياة الشوارع ولا حياة السكن الطلابى الذى يعيش فيه . صحيح أنه عرف بالخبر ، وكان يسمع الاذاعات . . يندهش لهذا الحريق الذى يشتعل فى إذاعات أوربا الغربية وأمريكا ، ويستريب فى الحذر الإعلامى السوفيتى . لكنه قبل

الآن لم يكن يحسب أن شيئاً ما قد تغير . فى نهاية ابريل كان انفعال الإذاعات قد بلغ الذروة . . عن كارثة حريق محطة « تشرنوبيل » الكهرو ذرية ، عن السحابة الذرية التى حملتها الرياح إلى أوربا . وعن المطر الملوث بالاشعاع الذى تساقط هنا وهناك . وعن الاشعاع الذى طال « كييف » القريبة من تشرنوبيل فأقفر فيها الحياة . وكان يعجب كيف أنه فى « كييف » ولا يحس بتغيير ما . . المدينة الحديقة مازالت كما هى . . خضرة الربيع التى تفجرت كأنما فجأة فى كل مكان . . زهور النسرين البيضاء العطرة ، وعناقيد زهيرات الكستناء ، وتوهج شجر الطوبال والبتولا بالخضرة . « الدنيبر » الفسيح الممتلىء بقوة المياه المستيقظة من إغفاءة الشتاء ، والناس الذين تسمهم الطبيعة بميسم بشر يتنزهون فى حديقة . ثم احتفالات أول مايو نفسها حيث كانت الاذاعات تتأجج بذكر الكارثة الذرية . بينما كان كل شىء « هنا » - فى موقع الكارثة التى يتحدثون عنها لا ينبىء عن تغير ما . . أى تغيير . احتفلوا بأول مايو مثلما كانوا يحتفلون من قبل . قلب المدينة الذى خلت عنه المركبات ليمشى الناس فى عرض الشوارع ، دفقات التجمعات البشرية التى تصب فى شارع « الكريشياتيك » المكسوة شرفات مبانيه بمستطيلات القماش الأحمر فى لون التوليب ، وموسيقى الجيش التى تصدح فى كل مكان ، وصوت الكورس الرجالى المتناغم بسحر النحاس . قوة هارمونية كانت تخفق فى سماء الشارع الكبير وتتخلله ببهجة جسورة حتى أنه صار يتواثب فى مشيه ويحرك

ذراعيه مثل مايسترو مع ايقاع المارشات والأناشيد .. البنات بالفساتين الأوكرانية الخفيفة ذات الأطواق المشغولة حوافها بفرح ملون ومنمنم ، وأكاليل الزهر التى يتوجن بها رؤوسهن . الضحك الجميل والدلع والغزل المباح .. ثم السنا الدفاق بالبشر ، والأرضية المظللة بالحمام وزهو الهندباء والخضرة .
الأطفال فوق أكتاف الآباء والبالونات الكبيرة المرفرفة .. فيونكات الشيفون الأبيض الكبيرة فى شعر البنات الصغيرات ، وبريق الميداليات والأوسمة على صدور الأبطال القدامى الذين خرجوا يرصعون على مهل مواكب الجموع المتحركة فى اتجاه ميدان النصر حيث سيتفجر العيد .. حكام الجمهورية على منصة الميدان وفى القلب تحتشد قطاعات موسيقى الجيش وفرق الشعب .. وتدق الساعات مالئة برنينها كل الفضاء .. ثم يهتف المذيع بتحية « أول مايو » ، و ... أورا!!! .. تتصاعد من حناجر المحتشدين الذين يرفعون أياديهم والقبعات والمناديل مع الصيحة المبتهجة .. ويحل العيد .. الدوران الحارق للتنورات الأوكرانية على قدود البنات الراقصات والشواشى العفى لتواثب الرجال ذوى القمصان المزركشة والنطاقات والأحذية الطويلة .. مقطوعات لا تعرف الجهامة ، وأطفال ورد الجو خدودهم فكأنها تشتعل .. بالونات تحلق وبشر يتخاصرون بمرح .. والهتاف لا ينقطع مع كل دفقة بشرية « أورا!!! » ، كان يترجمها هاتفا مع الهاتفين كطفل مصرى فى مولد : « هيه » .. فيشعر بمرح اللحظة الصبيانية ، ويتمادى فيها بلذة .. أورا! .. هيه .. فهل كان كل ذلك مجرد مظهر لشىء ما يخفيه القلب السوفيتى الذى يجيد الكتمان ؟ أم ماذا ؟

ماذا حدث ؟ هل ثمة شيء قد تغير في خلال أيام ؟ ولماذا يعاملونه هكذا ؟ المناوب العجوز وراء مكتبه عند المدخل لم يضاحكه ويضحك كعادته عندما يراه ، لم يقل له هاتفاً بانبساط ككل مرة : « السلامو اليكوم » ، بل تنهد في أسى ، وهز رأسه بإيماءة فيها من العتاب أكثر مما فيها من تحية . ثم إنهم كانوا يتوقفون في الردهات ويتابعونه بعيونهم للحظة قبل أن ينتبهوا إلى غرابة مسلكهم ويعاودون سيرهم من جديد . وفي طابور الأسانسير التفتوا إليه معاً حتى بدا كأنهم يلتفتون بأمر خفي صدر إليهم في لحظة واحدة . وفي صمت الصعود الكتوم لغرفة المصعد جوزية الجدران خافتة الضوء فكر في إنها الآن ، استاذته ، « يلينا بتروفنا » ، في قاعة اللغة الروسية تنتظره ليبدأ الدرس . . مثلما في كل مرة وحدها في الغرفة الكبيرة ، بملابسها الرصينة ، وهدوء جدة في الخامسة والأربعين . نظارة القراءة على الطاولة الصقيلة ، وانتقالها الأمومي . والحديث الذي يبدأ بينهما ككل مرة في أعقاب العطلات . . عن صحته ومعنوياته وعما إذا كان قد استمتع بأيام العطلة أم لا . وقرر أن يسألها هو هذه المرة .

* *

أوشك أن يتراجع ويغلق الباب حاسباً أنه أخطأ غرفتها إذ صدمه مرأى هذا العدد الكبير من البنات حول الطاولة ، والوجوه التي التفتت إليه كأنها كانت في انتظاره . لكنها كانت هناك - ليناً بتروفنا - في مكانها المعتاد على الطاولة . ووقع في حرج

للحظة ساد خلالها الصمت . ثم انتبه إلى أنه هو الذى ينبغى عليه أن يلقى التحية . « تحيات » قالها وسمع ردود التحية الخافتة منهن . وكان هناك مقعدان خاليان بقربه حول الطاولة . سحب أحدهما وخلع « الجاكت » كما يفعل فى كل مرة وألبسه لظهر المقعد ، وعلق الهاندباج فى كتف المقعد الآخر . وكان يجلس فى بطء . كل هذا وهو لا يدير وجهه المدهوش عنهن . كانت هناك ناتيانا مدرسة الانجليزية الحلوة الضحوك التى كانت كلما رأته مقبلاً تهتف بنبرة انتقاد عذبة ونشطة : « أوه .. هو .. خاسيد » لم تهتف كعادتها ولم يبتسم وجهها ككل مرة ، بل بدت شاحبة وصامتة وحزينة . وكانت هناك الكسيانا مدرسة الفرنسية وميرا سلاف وألونا والكسندرا وناتاشا وايرينا .. كل مدرسات قسم اللغات بالمعهد كن على طاولة « يلينا بتروفنا » ينظرن إليه بعيون فيها أسى وحزن وطيف مرارة ما ، وبدا مرتبكا وحاول أن يتكلم أن يسأل ما الخبر ؟ لكنه غمغم وفرك يديه حيرة ثم سمع صوت أستاذته واهنا : « محمد .. متى ستسافر ؟ » . « أسافر ؟ ! » .

سأل بدهشة واستغراب فيما كان الصمت سائداً ورأى عبر زجاج النافذة العريضة فى آخر الغرفة سحب الربيع المتقلب القاتمة ترحل .. يسافر ؟ ! « لماذا يا يلينا بتروفنا ؟ » . « لأن كل الأجانب يرحلون عن كييف » . وتحير ماذا يقول . إنه لم يفكر فى السفر الآن أبداً . لماذا يسافر ؟ ! لقد سمع أن الطلاب الانجليز والفرنسيين سافروا . استدعتهم سفارات بلادهم وعادوا خوفا من خطر « الاشعاع » وظل يضحك عندما سمع ذلك . ليس

لأنه يوقن بأن لا خطر هناك . ليس لأنه لا يصدق وجود هذا الاشعاع . بل لمجرد الاحساس بأنه لن يخسر شيئاً على أسوأ الفروض : سيموت بالسرطان بعد ثلاث سنوات ؟ جميل . .

موت مبكر أفضل من شر الأمرين ، شيخوخة آتية مع فقر لا ريب فيه . سيصاب بالعقم ؟ حسنا . . ولمن ينجب أطفالاً ؟ . . للتفرق في بلاده التي لا يملك فيها مجرد غرفة على سطح للسكنى ؟ أم للغربة التي لم تعد - في غربها أوشرقها - مهما كانت - تحتمل الغرباء ؟ . موت ؟ هذا جميل . عقم ؟ هذا أجمل . كان يردد ذلك كلما سمع في الاذاعات والاشاعات نبأ عن آخر تطورات الكارثة الخفية ، والرعب الذي لا يبين ، وكان يضحك بصدق لم يصدقه أحد . لكنه لم يقل هذا ولم يضحك وهو يجيب على سؤال أساتذته : « لن أسافر يا يلينا بتروفنا . ولماذا أسافر ؟! » وفتح كفيه أمامه تساؤلاً وحيرة أيكون الخوف قد تسلل إلى هذه القلوب الصبورة أخيراً ؟ أتكون ضوضاء الاذاعات الموجهة قد أتلفت هذه الأعصاب المتهمة بالبرود والتؤدة . أم يكون الخوف قد صار لازماً بيننا هو مثلما وصفه أحد الأصدقاء وهو يتكلم عن أبناء العالم الثالث عموما . . يدرسون العلم ويفهمونه لكنهم لا يحسون حقيقة به . . لا يفرحون به ولا يحزنون ، لأنهم ببساطة لا يعيشون به أو فيه . . حتى لو كانوا يستهلكون بعض تطبيقاته . لكنه رغم ذلك كله لا يستطيع أن يكره نفسه على تصديق مالا يراه . وكان لا يرى أمامه غير عشرة وجوه نسائية تتطلع إليه في غير تصديق أنه لن يسافر . كالآخرين . هل يقول

ثم ضاحكاً بمرارة أنه لن يسافر لأنه من بشرية أخرى غير الانجليز والفرنسيين .. بشرية لا يؤثر فيها ما لاتراه ولا تسمعه ولا تلمسه ولا تذوقه أو تشمه . أم ماذا يقول ؟ . ووجد نفسه يندفع فى القول : « لا يوجد شىء مخيف هنا لن أسافر . لايوجد أى خطر » . وسمع فى خفوت صوت تيانا ، تسأل : « يقينا يا محمد ؟ » . كان قد سمع عن أرتال الباصات والسيارات التى لا تنقطع حركتها على طريق تشرنوبيل .. عن الآلاف الذين يهجرون من دائرة عشرات الكيلومترات من حول المفاعل . عن تلوث المياه وانقطاعها فى منتصف الليل . وعن نقلها إلى مصادر المياه الجوفية إذ لم تنقطع . عن خطة لاخلاء المدينة ، وعن خطة أخرى لاخلائها من الأطفال فقط . عن اطفاء الحريق ، وعن استمراره ، وعن انفجار رهيب سيحدث يوم ١١ مايو حيث ينتهى كل شىء وينزل الناس تحت الأرض . لكنه فعلاً لم يحس بخطر ما ولم يجزع من أى شىء سيكون . وود لو يتمدد تواً على الطاولة المتسعة أمامه ويتمدد إلى جوارة واحدة من بعد أخرى .. يتمهن على ذراعه ووجهه على مقربة من وجوههن ويده الطليقة تربت بطمأنة عليهن . يتصور أن هذا هو أفضل وضع تصدق فيه المرأة رجلاً . وتسربت منه ضحكة إذ تخيل أساتذته بينهن .

وباغتته « ايرينا » العصبية قائلة : « محمد .. لماذا تضحك الآن ؟ » . ووجد نفسه فى فورة الشروع فى المرح يتورط ، ويجيب بسرعة وتدفق غريبين : « لأنى متأكد أن لاشىء هناك

التي يا ابريانا ، واعجب لذلك . لقد رأيت الأشجار والزهور والطيور وأنا في طريقي المعتادة إلى هنا . كل شيء ربيعي مثلما كان قبل تشرنوبيل يا ابريانا وكانت الوجه العشرة تلتفت إليه باهتمام شديد . تقترب فيشعر أنه رجل كل هؤلاء النساء اللاتي يلذن بكلماته الآن . وكاد يضحك متذكراً صورة عالمة الأنثروبولوجي الأمريكية التي ذهبت إلى مجاهل أفريقيا تدرس عادات ولغة احدى القبائل البدائية ، فتزوجت من زعيم القبيلة وارتضت أن تكون واحدة من بين نسائه المائة . ووجد نفسه يشرح بحماس فكرته التي تنتث لتوها في رأسه : « أن النباتات تحس وتعبر والطيور والحيوانات بالطبع كذلك . وبما أن هذه الكائنات لم تفسد فطرتها فهي تحس بأي تغير في البيئة من حولها حتى قبل أن يرصده الانسان وأجهزته العلمية . يحدث هذا قبيل ثوران البراكين وقدوم الزلازل : تكف الطيور عن التغريد وترحل ، وتنطوي الكلاب على نفسها في الأركان ، وتقفز بعض الأسماك من الماء منتحرة على الشاطئ ، والنباتات ... ؟

ولم يكن يعرف ماذا تفعل النباتات في نذر الكوارث ، لكنه اندفع في خطة الشعور بثقة غريبة تدفعها إلى كيانه هذه الوجوه التي دنت ترنو إليه ... « والنباتات التي لا تستطيع الرحيل تكتئب .. تهدل أغصانها وتذبل الزهور بسرعة وربما تساقط الأوراق . يحدث هذا لأن هذه الكائنات البكر جميعا تستطيع التقاط أبسط تغير في فيزيائية أو كيميائية الهواء أو الماء أو التربة من حولها . وبما أن الاشعاع يغير مستوى الطاقة حيثما مر كما يقولون فإنه يغير

فيزيائية الهواء على سبيل المثال وهذا تحبه الزهور والطيور والنباتات على الأقل . وبما أنني لم أر تغييراً طرأ عليها فإنني متأكد أن لا خطر هناك » . ولم يكن متأكداً تماماً مما قاله . . .

* *

لم يدهشه أن تكون « ناتاشا » جميلة السهولة وسهلة الجمال هي التي هتفت « صحيح . صحيح . صحيح يا محمد » ، فهي التي سألته مرة عما إذا كان لا يخاف من التماسيح التي تخرج من النيل وتتمشى في الشوارع ، وعن الشعاع الذي يسقط من قمة هرم خوفو إلى داخل إحدى حجراته ويشفي السرطان والكسور ويعيد الشباب . لكنه اندهش إذ بدا على وجه « يلينا بتروفنا » اهتمام شديد وقد راحت تسأل البنات عما إذا كن لاحظن هذه الأشياء قبل أن يأتين ، وكانت المفاجأة تغيم بالذاكرة لكن « يلينا بتروفنا » نفسها هي التي وثبت من مكانها وأسرعت إلى النافذة . . فتحت النافذة كلها بسرعة ، المصاريع الأربعة بتعاقب ، ومالت على العارضة تتمعن فانحبست أنفاسهن وأنفاسه . هن من فرط الرغبة في كامل الاصغاء وهو من شدة التوجس في أن يتحول طوق النجاة المتخيل الذي صنعه لتوه من أجلهن إلى حجر يغوص بهذه القلوب إلى قرارة اليأس . . ماذا لو لم يعد الآن طائر ؟ أو ذبلت لأي سبب من الأسباب شجرة ؟ ماذا يكون قد صنع بهن ؟ وقد كانت « يلينا بتروفنا » تميل ناسية نفسها تماماً في رغبة الإصغاء . . تبدو كطفلة كبيرة في هذا

الأنحناء والانثناء وإمالة رأسها تصغى وترنو إلى أسفل وعبر الشارع الخالى حيث يصعد فى الرصيف المقابل سور مقبرة ضحايا الحرب العالمية الأخيرة . . . سور طوبى اللون ضارب إلى حمرة مطفأة يظاهره سياج من أشجار الحور السامقة . كانت تظهر من بين جذوعها السوداء فى الشتاء أرض المقبرة يغطيها الثلج وتنتأ فيها بلاطات المقابر مغطاة بالثلج هى الأخرى ومحوطة بأسيجة من شجيرات عشبية ، بينما أشجار البتولا والتنوب والكستناء والقيقب العارية جميعا تتوزع وفيرة فى كل جنايا المقبرة . كان لا يحب الإطلال عليها ، فلم يرها منذ الشتاء . ولابد أن كل شىء فيها قد اخضر الآن حيث تنتظر ، يليبا شروفنا ، وتصغى ، وتنتظر والبنات ينتظرن . وهو أيضاً ، بقلب واجف ، ينتظر .

* *

بانت شقشقة عصافير بعيدة ، ثم أن واضحاً أوضح ما يكون تغريد بلبل ، وصدح فى نفس الوقت طائر ما . وهدلت حمامة . وحل جنون الغرفة .

* *

كم قبلة على الخد تلقاها ، وعلى رأسه ، وعلى الكتفين إذ بدا مستحيلاً أن ينهض من جلسته وهن يتكاثرن فرحات عليه . وكم لقباً نال ١٢ « دراجوى موخاميد » . « زالاتوى موخاميد » .

« موى موخاميد » . يا الغالى محمد ، يامحمد الذهب . يامحمدى أنا . العصافير تشقشق . والبلابل . وهديل الحمام أيضا . . وحتى العقبان . كلها مازالت تغنى يامحمد ، ومحمد الذى رشقته سهام كل هذا الفرح ، راح ينزف تأثرا فى أعقاب انطلاقهن من الغرفة وذهاب « يلينا بتروفنا » معهن ، كان موقنا أنهن سينتشرن الآن فى كل أرجاء المعهد ويعممن أن الطيور مازالت فى « كيف » تغرد ، ولا إشعاع مخيف . . لاسرطان مبكر ولاعقم ولاجنون ولاصغار يشيخون فى عمر الزهور . أى حكاية هذه يامحمد ؟

ونهض من مكانه فى الغرفة الخالية تقوده انقيادة أسى رهيف إلى براح النافذة المفتوحة . . هذا هو السور الطوبى المائل إلى الحمرة وهاهى ذرى الأشجار تكاثفت خضرتها الربيعية حتى غطت تماما ما تحتها فكأن هذه حديقة وليست مقبرة . وأصغى إلى شقشقة العصافير وتغريد الطيور التى يعرف والتى يجهل . . ثم مد البصر بعيدا يطوف بذرى « كييف » . . أشجار أشجار أشجار ، والبيوت بالكاد تبرز بيضاء من بين خضرة الأشجار . ترجع فى داخله قول الرسام الأمريكى « روسكويل كنت » بعد ما رأى كييف : « بالإله لقد رأيت حدائق كثيرة فى المدن ، لكن هذه أول مرة أرى فيها مدينة فى حديقة » . وشعر بخوف داخلى أن يكون الخوف من هذا الشعاع الخفى حقيقيا . أن تكون كل هذه الحديقة فى طور الاحتضار البطىء الآن أو فى انتظار الموت يوم ١١ مايو . تتدهور الأمور وتحدث الانفجار الذرى وينتهى كل شىء . . شوارع الشجر . أزقة الشجر . مشاور الشجر .

والشرفات المغطاة بأوراق عنب البيوت . صفاف الخضرة والتفاح والكريز على حافتي « الدنيبر » . وقباب « اللافرا » الذهبية التي تبرق في ربى الاخضرار . الحمام الذي يغطي طرقات حديقة ميدان « الفولاسفا » . ونوافير المياه المضاءة بالألوان التي ترقص رقص الضوء مع الموسيقى في ميدان « الاكتيبر سكايا » . لأمهات الشابات اللاتي يدفعن عربات صغارهن المتثائبين في الظلال . والعواجيز الذين يلعبون الشطرنج على مناضد جذوع الأشجار في حدائق « شابشنكا » . العشاق المتخاصرون في دروب الليلك العطرة والأظلال . . آه . هؤلاء الأطفال . الذين أبصرهم مرارا يتراكضون مرحين في مماشي الغابات الآمنة والحدائق . . يتوقف الواحد منهم فجأة إذ تلفت نظره وردة جميلة . فينادي أصحابه ويتوقف اللعب . يلتمون جميعا حول الوردة ويتلون عليها مشبكين أيديهم الصغيرة خلف ظهورهم . يتشممون رحيق الوردة ، دون أن يلمسوها . فقط : يتبادلون ويلوحون للوردة هاتفين : « سالاديتس » . وهي تعني « حسنة » . وبلغة الأطفال . . آه . هؤلاء الأطفال تعني « شاطرة » . يا وردة »

ختان بروسلی

لم يظهر متواثباً في ركضه بين البيوت مع مطلع الصبح ككل الأيام الماضيات . لم تسمع صيحته المضحكة « هاى هو » يبادر بها كل من يلقاه مع قفزة (كاراتيه) في الهواء على سبيل التحية . لم يهوهو لكلب نائم في بئر سلم يوقظه . ولم ينونو لتحيد قطة عن طريقه السريع . ولم يسبقه دبيبه وغناؤه وصخبة على درج البيوت التي يدخلها دون حاجة لإذن . لكنه راح يتبدى في نفس الأماكن عبر النور الرمادى المزرق للصباح الباكر ، ساكناً على غير العادة وخائفاً من شيء ما لم يكن معروفاً بعد . ثم .. هذا الزى الغريب عنه : جلباب من الدبلان الأبيض وحذاء (بلاستيك) تاشف مربوط بدوبارة ! أين أقدامه السريعة الحافية المتربة ، والشورت الأزرق المبقع وفانلة الألعاب الصفراء القديمة التي

ابيضت ؟ ملابس عمله الصباحى السريع وهو يطن كالنحلة بين البيوت .. يظهر ويختفى ويظهر ويختفى ولا يكف عن الركض اثناء ذلك .. من البيوت إلى (طابونه) الخبز إلى البيوت إلى طابونة الخبز من جديد ومن جديد البيوت ثم دكاكين البقالة فالبيوت فعربة الفول المدمس - البيوت - سوق الخضار القريب - البيوت - محل الطعمجى - البيوت . مشاوير عديدة خاطفة يلبيها وهو يلعب لعب (الكاراتيه) هذا الذى التصق به اسم لاعبة « بروسلى » وكتاد أن ينسى الناس اسمه الحقيقى فصار « اسماعيل بروسلى » ، أو « بروسلى » فقط . أو « المخضى بروسلى » - ضحكاً منه وصفة له إذ عادتما يظهر فجأة فى مطابخ وردهات وصالات البيوت وشقق العمارتين الكبيرتين فى الحى .

يعلن عن وجوده عنه الطفولى فى شيء ما من (ابليكات) هذه الأماكن أو صوته يلفت سيدة البيت « عايزه حاجة بسرعة أصل مستعجل » هكذا ببساطة مضحكة تنقلب غالباً فيها العين إلى حاء والزاى إلى سين والجيم إلى كاف وهو على العموم ما زال ينطق حرف الراء لام « حايسه حاكه بسلعه أصل مستحجل » . ويضحكن عندما تقع أنظارهن عليه إذ أن ملامحه لطيفه رغم الغبرة .. تقول احداهن ضاحكة « انت جيت يا مليل » فيرد : « بس ما تقوليس يا مليل احسن والله اسعل معاكى وما عتش اكلمك .. وتفاجأ به أخرى أو تبدو كمن فوجئت به تقول : « يوه » بسم الله الرحمن الرحيم ، انت طلعت لنا منين ياوله » ، فيكون رده : « ح السلام يا أختى يحى منز خالقه واللا مس

خالقه . . . وهو يمط حروفه مطاً مضحكاً ثم يرسله فى مشاوير الصبح يليها ويضمن فى جيوبه القروش ويبن يديه شيئاً مما اشتراه : رغيفين ، قرص طعمية ، بيضه ، حبة طماطم . يتمنع لحظة ثم يقبل ويطير . . يحط بين يدى أمه وأبيه الضرير وإخواته البنات الأربع ، فى الغرفة المجاورة للسلم ببدروم منزل « حسين صل » ، ويعاود الطيران ، كأنه لم يخلق ليهدأ لحظة ، لهذا سرعان ما اكتشفت السيدات فى هذا الصباح سكوته ، ثم اكتشفن زنّه الضحك والذى كان مضحكاً لأنهن لم يتصورن « بروسلى » فى شكل آخر واشتر النبأ . بعد التقصى ، بين الشرفات والنوافذ الصباحية المفتوحة والمتقابلة :

« الولاد هايتطاهر النهاردة يا عبق » ، « الحاج صلى عاملها صدقة عن ولاد ولاده » ، « بعدما المزين يطاهر عيال صلى هايتزل بطاهره على حساب الحاج » ، « فوق البيعة يا عبق » . وياعبق ، بضحك ، وتأثر ، ونوبة صعود لشفقة راحت تنهال منها على « بروصل » العطايا : دجاجة مجمدة لتطبخها له أمه حتى يتقوى بعد الختان . وعلبة بسكويت راح يتأمل رسومها بانبساط مشردد . وكيس فاكهة . وشاش وقطن ومركركروم من اجزاخانات البيوت . ونقود ورقية حشت بها السيدات جيب جلبابه الصغير الذى ركبته الخياطة معوجاً . وكان « بروصل » من كل هذا ومما سيحدث له بعد ساعة أو ساعتين فى استغراب ، ودهشة ، وترقب وجل . . يمضى دون أن يتراكض متواثبا توائب « بروصل » ، دون أن يتصايح مثله ، ودون أن يطير .

●

مدّ « سعد الاسكافى » اللمبة بالسلك من دكانه وادلاها من نافذة البدروم القريبة من الأرض ووضع الفيشة فأضاءت . لكنه لم يتمكن من رؤية ضوئها إذ فاجأته المرأة « الناشفة » - كما جاء فى لازمة سبابه لها فيما بعد - أم « بروصل » بالوقوف فى وجهه مانعة إياه من الدخول للمعاونة فى الامساك بالولد عند الختان . وضعت ذراعيها الجافتين فى حلق الباب ووقفت بطولها الناحل اليابس تمنع برجاء وحسم أى أحد من الدخول غير « وتّه » المزين ، وأخرجت البنات إلى الشارع . وقالت إن الولد

سيمسكه أبوه وتقوم هي بالمناولة مع الاسطى «وته» . ولم ينها أبدا زعيق سعد الاسكافي وهو يضرب كفا بكف لاما حوله الناس متعجبا لجنون المرأة ومرددا : «خيرا تعمل شرا تلقى» . واتفق الذين التموا على أثر زعيقه معه في الرأي حول جنون المرأة . فأبو الولد ضرير ومقعد منذ سنوات كما يعرف الجميع وربما ينفلت الولد منه . وهو ـ سعد الاسكافي ـ لم يكن يريد إلا المساعدة لوجه الله . وأوشك أن ينتزع الفيشه ويسحب اللمبة والسلك لولا أن أثناه الناس واتفقوا معه أن «يعمل الخير ويرميه في البحر» وأن «الجزاء عند الله» . لكن هذا لم يمنع الجمهرة الصغيرة من التبدد ، بل راحت تزداد مكتسبة فضوليين جددا . . أصحاب الدكاكين المجاورة ونساء البدرومات الأخرى القريبة وبعض الأطفال . . وقفوا في ترقب ينتظرون ما يسفر عنه ختان ولد سيمسك به أب ضرير مريض ، وتحضره ـ وحدها ـ أم مجنونة .

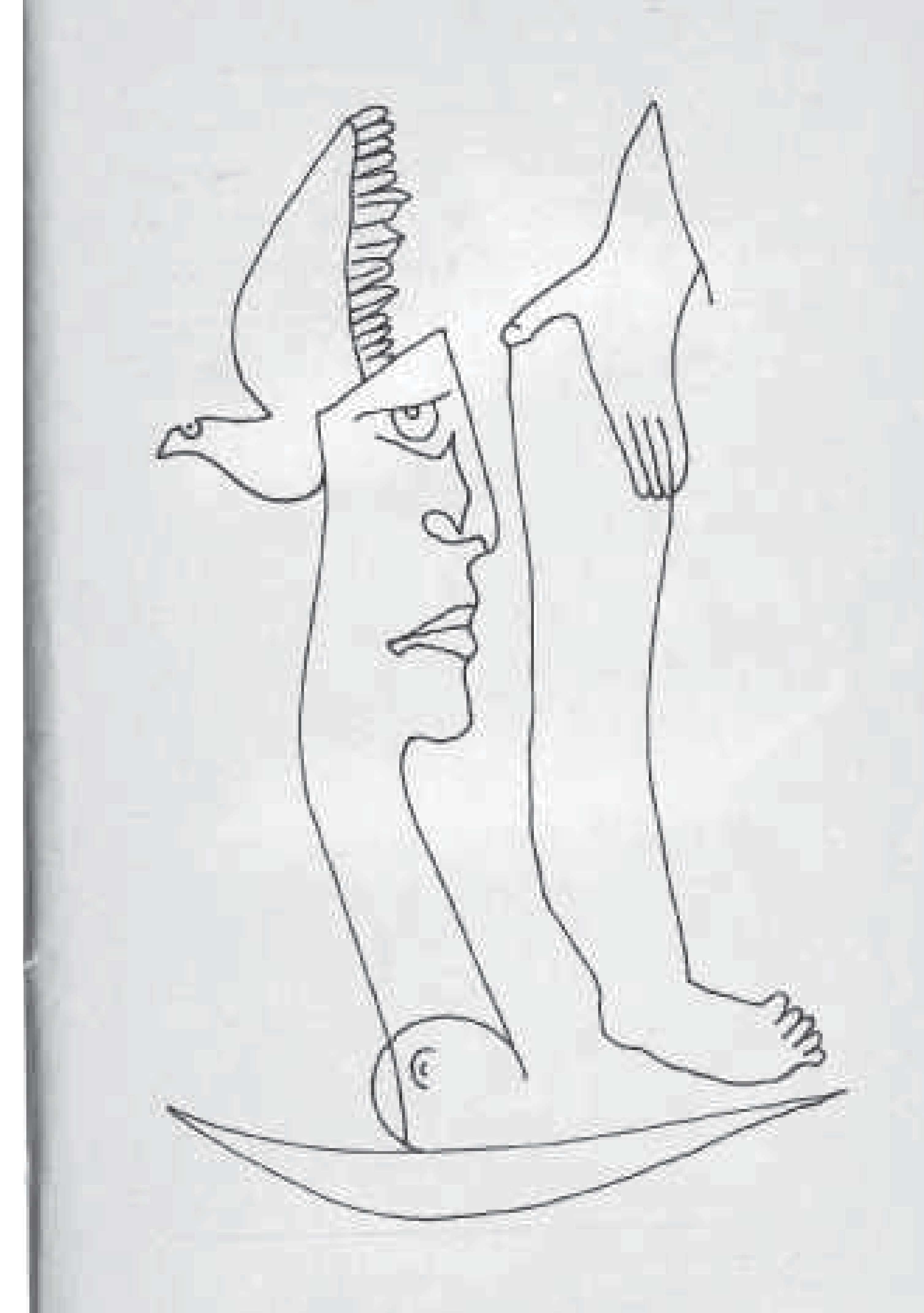
●

في النور بدت حيطان حجرة البدروم القريبة من السلم كثيبة ، تسودها آثار أياد كانت تساند عليها وتتلمسها في العتمة وكانت هناك بقع من العفن الداكن تنتشر بطول الحيطان وعرضها . وفي الركن تكومت اشياء بدا أنها من لوازم جهاز البنات ، أشارت إليها المرأة قائلة للمزين : «البركة في اسماعيل يا عم وته» . وشعر «وته» المزين بإنقباض ، بل بوجل يداخل

نفذه بنفسه كما لم يحدث له خلال ثلاثين سنة ختن فيها آلافا من البشر . ومع ذلك استمر فى اعطاء أوامره بالتجهيز للختان .. أمر المرأة بأن تعطى (وابور الجاز) نفسا يشدد من نيرانه حتى يغلى الماء فوقه أسرع لتطهير العدة قبل وبعد استخدامها ، وتأكد من متانة الكرسى الذى سيجلس عليه الرجل الضرير والولد .

وأخذ يداعب الولد ويطمئنه ، وكان يرتل بلا انقطاع وعبر حديثه سورة الفلق . وكانت المرأة تتحرك بلا انقطاع فى الغرفة الضيقة دون أن يبدو هناك أى داع حقيقى لحركتها ، ودون أن يكون هناك ما تفعله . وكان الرجل الضرير واقفاً يضم الولد إلى جنبه ماسحا بيده الضريرة على رأسه ومردداً : « ما تخافش يا اسماعيل دى حاجه بسيطة خالص ، بسيطه خالص يابا » . وكان اسماعيل مبهوتا وشاحباً حتى بدت عيناه السوداوان أكثر لمعاناً ودكنة . ثم ركن المزين المقعد جيداً إلى الجدار وراح يجلس الرجل الضرير معدلاً من جلسته لتتلاءم مع مجىء الولد فى حجره . وارتفع الولد ثم أحاطت به الأذرع الضريرة تفتحه مهيأة فى وضع الملك جيداً كما شكلها المزين ، وبدأ الولد يصرخ . صراخا غطى على زعقة المزين إذ رفع جلباب الولد يكتشفه : « أيه ده ؟ ! » . وهرولت الأم سائلة بلا صوت ، مبهوته كمن تلقى نبأ ظل يخفيه طويلا . وأجابها المزين : « الواد دا مش عيّل يا أم اسماعيل » . وعاجلته المرأة تسكته بتوسل رافعة يمناها فى مواجهة فمه : « حلفتك بالله ما تجيب سيره . يقطعوا رجله ياعم وته وما يدخلهوش لا هنا ولا هنا » . « لكن دا مش صغير

يا ام اسماعين » . « والنبي ما هو دارى بنفسه يابا . والنبي ما هو دارى بنفسه . أحب على رجلك ما تجيب سيره لحد يا حاج وته » ، وهوت المرأة على قدمى المزين تقبلها ، فتراجع متمتماً : « استغفر الله العظيم . استغفر ليه العظيم » . وكان صراخ « بروسلى » يتصاعد مطعّماً بسبابه المضحك وكان يشرق بصرخاته ، وبين الصرخات يبين طنين وابور الجاز ، وضحك له الناس في الخارج .



دم الغزال

من الوادى العطشان إلى الوادى الريان ومن الوادى الريان يدفعها إلى الوادى العطشان وتستمر المطاردة حتى تتعب فتتوقف لاهثة خائفة ترتعش وتتوقف بقربها . . « اللاندروفر » ويهبط زميله السائق ليأتى بها من قرنيها طيّعة إلى العربة ، دون أن يطلق عليها النار ، دون أن يشعر بتلوثه مزيداً إذ تتلوث يداه بالدم وهو يوازن ما بين طاعة الأمر ومخالفة ضميره ، مخالفة حقيقية دوره . تلك كانت خطة إبراهيم لصيد الغزالة المطلوبة . يفكر بها وهو يصعد صاغراً بسلاحه إلى مقدمة العربة . ثم أمر إبراهيم زميله أن ينحرف فى انطلاقه حتى يبلغ طرف العطشان ومن هناك يكون الدوران حول الريان إلى حيث تكثر الغزلان فى المحمية . « المحمية » ! رددها ابراهيم فى داخله ممزوجة بمرارة السخرية من

فرط فجاجة المفارقة وانفضاحها : حماة المحمية يتهيبونها ، وماذا يكون الأمر غير ذلك ؟ أليس واحداً من جنود السرية المنوط بها حراسة هذه المنطقة المعلن عنها كمحمية طبيعية ؟ أليس دورهم المحدد أن يمنعوا أي يد تحاول الإمتداد إلى هذه البقعة لصيد واحد من حيواناتها المهددة بالانقراض ، وعلى وجه التحديد : الغزلان ؟ الغزلان التى هو ذاهب لصيد واحد منها بالأمر المباشر من قائده ! ولأجل خاطر الشواء المشتهى على مائدة قائد القائد ! وزفر إبراهيم زفرة كان مقدراً لها أن تطول لكنه شهق سريعاً مع هذا الشعور المفاجىء بالهبوط . . كانت « اللاندروفر » قد اجتازت حافة الوادى العطشان القاحلة المرتفعة وراحت تهبط فى منخفض الوادى الريان عند سفوح التلال والجبال الصخرية . وأمر ابراهيم زميله أن يبطىء . أن يخفض من صوت المحرك ، ليتسللا فى شبه صمت إلى قلب الريان .

●

السيل يداهم الوادى من النقطة نفسها التى تسللت عبرها « اللاندروفر » . . من بين شقوق تلال الأردواز الرمادية والبركانيات الصخرية الكريمية الناصعة . تبوح بسيرة السيل هذه الحجارة الوردية والحصى الذى يفترش الدرب المعشب وينتشر فى الوادى . ذكرى الاندفاع الكاسح لمياه الأمطار المنهمرة على جبال الجرانيت العالية فى الجنوب ، تأتى دافعة أمامها بشجيرات الشوك المقتلعة من الرمال ، ونباتات الصبار ،

والعشب الصحراوى . . تأتى مدجّجة بفتات الصخور الوردية القاطعة التى تساقطت من قمم الجبال وحوافها المتخلخلة . نهر مجتاح يندفع ليدخل الوادى فتهرب من تذره الفئران حاملة صغارها إلى قمم الجبال والتلال المحيطة ، وتهجر الطيور أعشاشها ، وتفر الأرانب الجبلية والثعالب والذئاب ، وتطلق الغزلان أمامه سيقانها للريح . صورة مماثلة لصورة الأثر الذى أحدثه اندفاع « اللاندروفر » فى بطن الوادى . لكن السيل يفعل ذلك ولا يلبث حتى يشف عن صورة أخرى . . يتلاشى . .

تتشربه السفوح وترتوى فتخرج من بين جنباتها الخضرة . يصير الوادى « ريان » إذا ما قورن بالوادى المرتفع المجاور له والذى يظل « عطشان » لاتصعد إليه ، وتجافيه ، المياه . تدب الحياة فى أعطاف الريان بعد الفزع . . تأتى الأرانب والغزلان التى تغتذى على العشب ، ثم تأتى الثعالب والذئاب التى تغتذى على الأرانب والغزلان ، وفى أعقابها تأتى الضباع التى تتنبذ الأركان فى انتظار نفايات الولائم البرية . . تحط أسراب الطيور المهاجرة قليلاً للراحة ، ويعشش حمام القطاق بتجاويف الصخور . وفى لحظات الشبع الحيوانى ، يبدو الريان واحة تسكنها سلسلة من الكائنات الأليفة المتوادة . تهجع بقرب بعضها البعض . ترعى أو تتمطى أو تغفو فى سكينة . الصورة التى وخزت قلب إبراهيم لحظة اخترقت « اللاندروفر » قلب الوادى . كان كل شىء هادئاً وديعاً ومتناغماً بسحر لوحة حية . ثم دب الروع فى هدوء هذا السحر مع ظهور السيارة . وراح الارتياع يطيش « اللاندروفر »

تضاعف من سرعتها لتطارد غزالة شاردة . أربكت المباغتة الغزالة فارتكبت أول أخطائها .. جنحت للخروج من الريان بدلاً من أن تلوذ به . ضيعت أسنح فرصها للدخول في خور صخرى تقف أمامه اللاندروفر كقطعة عاجزة من حديد .

وأسلمت مصيرها لجفاء العطشان . وفي دروب العطشان الممهدة بلا عوائق من نبت أو فتات صخور ، وفي سفوح الكثبان المنسرحة لم يعد للغزالة إلا أن تجرى أمام وحش الحديد . لكنها لم تكن تجرى . لقد كانت تطير . بدت لإبراهيم في ركضها الغريب أمامه وكأنها صورة حلمية . أو عرضاً بطيئاً لفيلم بالغ النعومة عن غزالة تسبح في الهواء القريب من سطح رمال حريرية متماوجة . تماوجاً بكراً لم تطأه من قبل عجلات أو قدم . لكن أطراف قوائم الغزالة كانت تطؤه الآن . بل تغمزه غمزاً خاطفاً برشاقة أطراف أربع قوائم غزلانية ، تتضام في نقطة واحدة يتقوس أعلاها جسم الغزالة . قوساً ساحر المرونة ، مشدوداً ، كأنما يصوب نحو السماء . غمزة ، وينطلق القوس سهمه الغير مرئى . بل ينطلق القوس نفسه .. ينفتح جسم الغزالة طائراً في الهواء ، إلى الأمام ، إلى الأمام ، إلى الأمام . إلى الأمام في انفساح الوادى الرملى وعبر المنعطفات بين التلال . و « اللاندروفر » في أعقاب الغزالة تجمح وتجأر . يضاعف السائق من سرعتها بشكل تلقائى في البداية . لكن المطاردة توقظ شيئاً ما في دم إبراهيم . يحس بالسخونة تتصاعد في عروقه ، سخونة مغلول ، ويحس شيئاً وكأن الغزالة تلطمه كلما انفتح جسمها

طائراً فى الأمام . تلطمه بطرق قائمتيها المطوحتين إلى الخلف فى انطلاقها . وتتعاقب على نفسه ألهانة مناظر لحظة سماعة للأمر ، ولحظة تردده فى مراجعته كما ينبغى ، ولحظة الصدوع والتنكيس . وتصير المطاردة جنوناً يصعد فى داخل ابراهيم . وابراهيم ينتصب لهذا الجنون واقفاً فى مقدمة « اللاندروفر » يصرخ فى السائق بالاسراع والانعطاف والمناورة . وتضيق المسافة بين الغزالة وابراهيم . تضيق حتى تصفع الرمال التى تقذفها اقدام الغزالة وجهه . تضرب جفونه الطارفة وتدخل فى خياشيمه وفمه ويحس بجرشها بين أسنانه وهو يصرخ فى السائق . ثم يصرخ من شدة الضيق . ويقرر أن يطلق عليها طلقة واحدة : طلقة لا تقتلها لكن تصيب ساقاً من سيقانها بالارتباك لتتوقف . ليمسك بها وينظر فى عينيها وهى مغلوبة وأسيرة . كم كان يشتهى هذه النظرة . وكم كان دافعه إليها غامضاً وغالباً .. ولا يُقاوم ، وراحت يداه تتشنجان وهو ينصب « السيبيا » المثلثة على غطاء المحرك ، وعلى قمة « السيبيا » يثبت الرشاش .

●

طلقة ، وطاشت . طلقة ، أصابت . لكن لم يبد لها من أثر .. مجرد اهتزازة عابرة ، خفيفة ، فى مسار الركض الطليق السابح ، ثم عاد التجانس للمسار . حتى الدم لم ينبثق من موضع الاصابة . واشتعلت الحرب . طلقة أخرى تصيب . دفعة صغيرة من الطلقات . زخات زخات زخات . والهدف

بقعة صغيرة واحدة مساحتها سنتيمترات قليلة من ساق الغزالة اليمنى التى يطلق عليها ابراهيم . على الركبة يطلق فى جنون وهو يصرخ فى السائق أن يطير .. يحيد .. يندفع .. ينعطف .. ويطلق .. يطلق .. يطلق .. تفر التلال بأشكالها الغامضة التى نحتتها رياح السنين . تطوى الكثبان . وتمضى مسرعة تموجات بحر الرمال . ثم ينفصل هذا الجزء من ساق الغزالة فيصرخ ابراهيم . صرخة الغريق المغلول الذى لاحت له قشة . وما لبثت حتى غرقت هذه القشة . ارتبك ركض الغزالة برهة ثم استعادت نفسها . صارت القائمة الخلفية الوحيدة تعمل عمل الاثنتين . لا فارق يكاد يُذكر إلا أن الركض تحور قليلاً مساره . صار قوساً . وفى انحناء القوس كانت « اللاندروفر » تميل . إلى حد الخطر الذى سلم فيه ابراهيم بفكرة اصابة الغزالة ، سريعاً ، فى مقتل . وفى اللحظة القاطعة ، قطعت الغزالة قوس ركضها بانعطافة حادة . ودخلت فى فوهة أقرب كهف صادفها .

●

بدا لابراهيم ألا يتعجل بعد أن توقفت « اللاندروفر » ، وتوقف هذا التراكض المحموم فى داخله ، وتوقفت الغزالة فى فوهة الكهف . بدا له أنها حُشرت فى الفوهة لاتستطيع التقدم ولا تستطيع الرجوع . وسيهبط ويجذبها مع زميله السائق من الخلف . من الساق الوحيدة الباقية . وسينظر فى عينيها ملياً قبل رفعها إلى ظهر العربة . ونزل ابراهيم مع السائق . مشيا

خطوات فى الرمل المُعيق وتواثبا بين صخور السفح . ثم توقف ابراهيم ينظر إلى هذا الجزء المرتعش الباقى من الساق المبتورة عند الركبة . تعجب كيف أنه لم ينزف وكان الطلقات الملتهبة حينها كانت تقطع تكوى . أى حجم من الألم . ومد يديه فأحس بأول النعومة فى الوبر الغزلانى بأعلى الساق السليمة ، وأحس ببلل العرق . وأوغل ليُمسك لكنه قفز مرعوباً إلى الخلف وقفز زميله السائق . سمعا صوتاً لاشك فيه لسعار ذئاب تختفى داخل الكهف الذى لاذت به الغزالة . وكان واضحاً أنها لم تُحشر فى الفوهة . ولابد أنها رأت منذ اللحظة الأولى وميض العيون الذئبية فى العتمة . وقد تكون تبينت بياض الأنياب وهى تكشر . كان ثمة إمكانية لديها للتراجع . لكنها لم تتراجع خارجة بظهرها من الكهف .

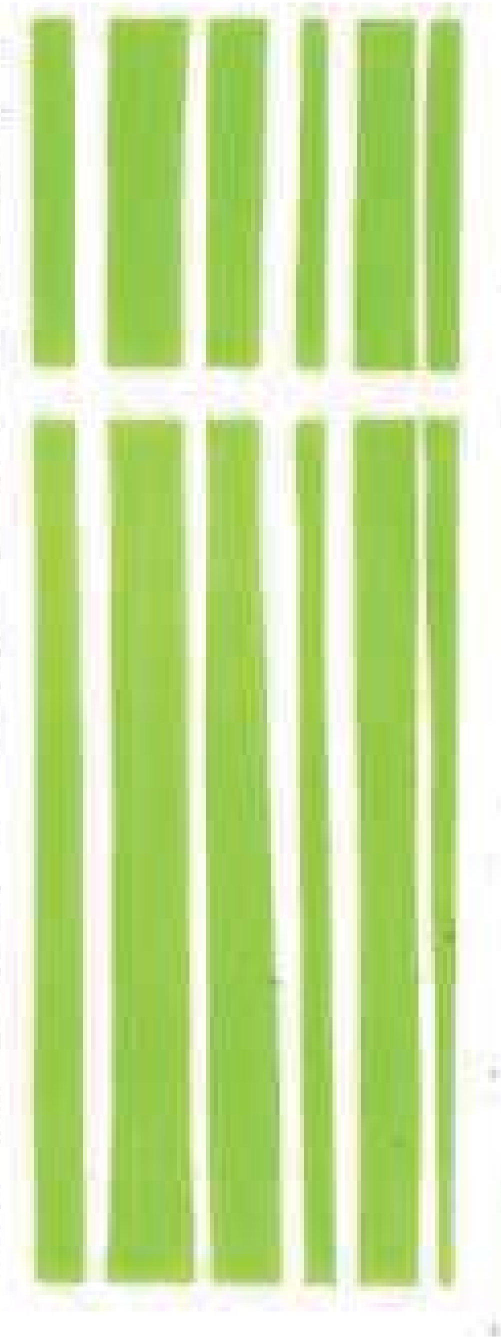
واستمر السعار فيما كان إبراهيم والسائق واقفين على مبعدة والسلاح متأهب للإطلاق إذا برزت من الكهف الذئاب . لكن الذئاب لم تبرز . فقط .. كان هذا الجزء الظاهر من جسد الغزالة فى فوهة الكهف ينشد وينتفض ، يسكن مرتعشا ثم ينتفض ، تبعاً لتأجج السعار أو خفوته . ثم راح الدم يخرج من أرضية الكهف . من بين أقدام الغزالة الثلاث الباقية ، خالص الحمرة ، وينحدر فى تيار سريع دافق على حافة فوهة الكهف الصخرية .

الفهرس

١ - الفئران ٥
٢ - أمام بوابات القمح ١٧
٣ - حيث الناس والبيوت ٢٩
٤ - المخالسة ٣٩
٥ - ما بال هذا الأنين ٤٧
٦ - هذه المزرعة ٥٣
٧ - البلاد البعيدة ٦١
٨ - الأسوار ٧٩
٩ - الحرب ٨٩
١٠ - الموت يضحك ١٠٥
١١ - سائقة « ترولل » ١١٧
١٢ - هل هي آخر تحية للورد ؟ ١٢٣
١٣ - ختان بروسل ١٣٧
١٤ - دم الغزال ١٤٧

رقم الإيداع بدار الكتب ١٨٧٢/٨٨





ما أحب الاشارة إليه،لو كان ذلك واردا،هو أن هذه النوعية من القصص ليست مرحلة من مراحل تطورى فى الكتابة باتجاه القصة القصيرة جداً أو القصة القصيدة أو الأقصوصة الموجزة التى أشتهرت بها واشتهرت بى ، إلى حد ما ، ولكن هذه القصص الأميل إلى الطول هى طبقة من طبقات الصوت القصصى الذى لا ينبغى أن يكون أحادى النبرة،فى أعتقادى،بل ينبغى أن يكون قادراً على الانتقال بين النغمات إن تطلب الأمر ذلك .

المؤلف